يسعك أن تعيريني إيّاه؟"

هزّت أونا رأسها وقالت: "كلّا، أنا لا أملك سوى زوج الجوارب الأسود ذاك، كما أنّني بالكاد أتمكّن من ارتدائه لأنّه ضيّق للغاية، إنّها لن تناسب مقاس قدمك. ثمّ إنّه مليئ بالثّقوب."

قالت فيث معاندة: "لن ألبس تلك الجوارب المقلّمة. إنّ ملمسها أفظع من مظهرها فهي تشعرني بأنّ ساقيّ ضخمتين كالبراميل وتصيبني بالحكّة."

"حسنًا، أنا لا أعلم كيف ستتدبّرين أمرك."

"لو كان والدنا في المنزل لطلبت منه أن يشتري لي زوجًا جديدًا قبل أن تقفل المتاجر ولكنّه سوف يتأخّر في العودة. سوف أطلب منه ذلك يوم الاثنين ولن أحضر إلى الكنيسة في الغد. سوف أتظاهر بأنّني مريضة وسوف تضطرّ الخالة مارثا لأن تسمح لي بملازمة المنزل."

صاحت أونا قائلة: "هذا سيكون تمثيل كذبةٍ يا فيث. لا يمكنك أن تفعلي ذلك. أنت تعلمين أنّ ذلك سيكون مريعًا. ما الذي سيقوله والدنا إن علم بالأمر؟ ألا تتذكّرين كيف تحدّث إلينا بعد وفاة والدتنا وأخبرنا أنّه علينا أن نبقى صادقين دائمًا مهما كانت الأمور الأخرى التي نخفق فيها. لقد قال أنّه لا يجدر بنا أن نمثّل كذبةً أو نتفوّه بالأكاذيب وأنّه يثق بنا في ذلك. لا يمكنك أن تفعلي ذلك يا فيث فلتلبسي الجوارب المقلّمة لمرّةٍ واحدةٍ وحسب، لن يلاحظها أحدٌ في الكنيسة فالأمور هناك لا تشبه الأمور في المدرسة كما أنّ ثوبك البنيّ الجديد طويلٌ جدًّا وسيغطّيها. أليس من الحظّ أنّ الخالة مارثا خاطته كبيرًا كي تتمكّني من ارتدائه إلى أن تصبحي أكبر على الرّغم من أنّك كرهته حين أنهت خياطته؟"

كرّرت فيث قائلة: "لن ألبس تلك الجوارب." ثمّ حلّت قدميها البيضاوين العاريتين عن شاهدة القبر ومشت عمدًا على العشب

الأخضل البارد نحو كومة الثّلج ثمّ داست عليها ووقفت هناك.

صاحت أونا مذعورة: "ما الذي تفعلينه؟ سوف تصابين بنزلة بردٍ مميتة يا فيث ميريديث."

أجابت فيث: "هذا ما أحاول فعله. آمل أن أصاب بنزلة بردٍ هائلة وأن أمرض جدًّا غدًا، لن أكون أمثّل كذبةً هكذا. سوف أقف هنا بقدر ما أستطيع أن أتحمّل."

"ولكنّك قد تلقين حتفك حقًّا يا فيث، قد تصابين بالتهاب الرّئة. رجاءً يا فيث لا تفعلي. فلندخل إلى المنزل ونجد لك ما تلبسينه في قدميك. آه ها قد عاد جيري. كم أنا شاكرة. جيري أرغم فيث على التّرجّل عن الثّلج. انظر إلى قدميها."

سألها جيري: "يا للهول! ما الذي تفعلينه يا فيث؟ هل فقدت صوابك؟"

صرخت فيث قائلة: "لا. أغرب عن وجهي!"

"هل تقومين بمعاقبة نفسك على أمرٍ ما؟ إن كانت تلك هي الحال فذلك ليس صائبًا. سوف تمرضين."

"أريد أن أمرض. أنا لا أقوم بمعاقبة نفسي. أغرب عن وجهي."

توجّه جيري لأونا بالسّؤال قائلًا: "أين حذاؤها وجواربها؟"

"لقد أعطتهما لليدا مارش."

"ليدا مارش؟ وما السّبب؟"

"لأنّ ليدا لا تملك أيًّا منهما وكانت قدماها متجمدتين، وهي الآن ترغب أن تصاب بالمرض كي لا تضطرّ إلى الذّهاب إلى الكنيسة غدًا وارتداء جواربها المقلّمة ولكنّها قد تقضي نحبها يا جيري."

قال جيري: "ترجّلي عن كومة الثّلج تلك يا فيث أو سوف أسحبك بنفسي."

تحدّته فيث قائلة: "فلتفعل."

هرع جيري إليها وسارع للإمساك بذراعيها فشدّها باتّجاه وشدّت فيث بالاتّجاه المعاكس. ركضت أونا إلى خلف فيث وقامت بدفعها. ثارت فيث على جيري كي يدعها وشأنها في حين ثار جيري بدوره على فيث كي تعدل عن تصرّفها الأرعن، أمّا أونا فكانت تبكي.

أثاروا ضجيجًا عارمًا وكانوا قريبين جدًّا من حاجز المقبرة المواجه للطّريق. مرّ "هنري وارين" وزوجته بعربتهما ورأوا وسمعوا كل شيء. وفي وقتٍ قصير، سمع جميع أهالي جلين أنّ أطفال الدّير كانوا يتشاجرون فيما بينهم بطريقةٍ مروّعة مستخدمين ألفاظًا غير لائقة. في تلك الأثناء، كانت فيث قد أذعنت للترجّل عن الثّلج لأنّ قدميها كانتا تؤلمانها بشدّة وكانت مستعدّةً للنّزول في أيّة لحظة. بعدها، دخلوا جميعهم إلى الدّاخل بأنسٍ وخلدوا إلى النّوم. نامت فيث كالملاك واستيقظت في الصّباح بدون أيّ أثرٍ لنزلة برد وأحسّت أنّه من المحال لها أن تدّعي المرض وأن تمثّل كذبة بعد استذكارها لذلك الحديث مع والدها منذ وقتٍ طويل، ولكنّها كانت ما تزال مصرّةً على عدم ارتداء تلك الجوارب الشّنيعة للحضور إلى الكنيسة.

***

25
فضيحةٌ أخرى و"توضيحٌ" آخر

ذهبت فيث إلى مدرسة الأحد باكرًا وجلست في زاوية مقعدها في الصّف قبل مجيء الآخرين. ولذا، لم تنتشر الحقيقة المريرة إلى أن غادرت فيث مقعد الصّف للتوجّه إلى مقعدها في الكنيسة بعد دوام مدرسة الأحد. كانت الكنيسة شبه مكتظّة بالفعل وجميع الذين كانوا جالسين بجوار جناح الكنيسة رأوا أنّ ابنة الكاهن كانت تلبس جزمة من دون جوارب!

كان ثوب فيث البنّي الجديد، والذي كانت الخالة مارثا قد خاطته على الطّراز القديم، طويلًا على نحوٍ يدعو للسّخرية ولكنّه على الرّغم من ذلك لم يكن يصل إلى أعلى جزمتها وكانت بوصتان من ساقيها البيضاوين جليّتين للنّاظرين.

جلس كارل وفيث بمفردهما في مقعد الدّير أمّا جيري فكان قد ذهب إلى معرض الكنيسة للجلوس مع أحد أصحابه وقامت فتاتيّ بلايث باصطحاب أونا معهما. عُرف أطفال ميريديث بالجلوس في جميع أنحاء الكنيسة بهذه الطّريقة الأمر الذي كان يراه الكثيرون غير لائقًا. ولاسيّما في المعرض، حيث يحتشد الأطفال المهفوفون الذين

يتهامسون ويشاع عنهم أنّهم يمضغون التّبغ أثناء الخدمة، لم يكن مكانًا مناسبًا لابن الدّير ولكنّ جيري كان يكره مقعد الدّير في أعلى الكنيسة، والذي كان محطّ أنظار الشّيخ "كلو" وأسرته وكان يلوذ بالفرار منه متى ما سنحت له الفرصة لذلك.

لم يلحظ كارل، والذي كان منغمسًا في مراقبة عنكبوتٍ يغتزل شبكته عند النّافذة، ساقي فيث ولم يلحظهما السيّد ميريديث البتّة، حين مشى مع ابنته في طريق العودة من الكنيسة إلى المنزل. قامت فيث بارتداء الجوارب المقلّمة الكريهة قبل عودة جيري وأونا لذا وفي الوقت الرّاهن لم يكن أيٌّ من مقيمي الدّير على علمٍ بما فعلت غير أنّ جميع أهالي "جلين سانت ماري" الآخرين لم يفتهم الخبر، حتّى أنّ قلّة من الذين لم يروا بأعينهم سمعوا بآذانهم على الفور، ودارت جميع الأحاديث في طريق الإياب من الكنيسة حول تلك الواقعة. قالت "السيّدة دايفس" أنّ ذلك كان في الحسبان وأنّ بعضًا من أولئك الصّغار سوف يحضرون إلى الكنيسة في المرّة المقبلة عراةً تمامًا. قرّرت رئيسة جمعيّة "مساعدة السيّدات" أنّها سوف تتطرّق إلى هذا الأمر خلال الاجتماع القادم وتقترح أن يبقوا على الكاهن ويحتجّوا. قالت الآنسة كورنيليا أنّها عن نفسها قد استسلمت وأنّه لا جدوى من القلق بشأن صغار الدّير بعد اليوم، حتّى أنّ السيّدة بلايث اندهشت بعض الشّيء على الرّغم من أنّها أرجعت فعلة فيث لفرط نسيانها. لم تتمكّن سوزان من حياكة جوارب لـفيث على الفور لأنّه كان يوم الأحد ولكنّها كانت قد جهّزت واحدًا قبل أن يستيقظ أيّ من أهالي "إنجلسايد" في الصّباح.

قالت: "إيّاكِ أن تخبريني يا زوجة الطّبيب العزيزة بأنّ العجوز مارثا تلك ليست الملامة. أعتقد أنّ تلك الطّفلة المسكينة لم تكن تملك أيّة جوارب لائقة لارتدائها، أعتقد أنّ جميع جواربها كانت مثقّبة فأنت تعلمين تمام العلم أنّها غالبًا ما تكون كذلك، كما أظنّ يا عزيزتي زوجة

الطّبيب أنّه من الأفضل لجمعيّة "مساعدة السيّدات" حياكة بعض الجوارب لأولئك الأطفال، بدلًا من التّشاجر على السّجادة الجديدة لأجل أداء الوعّظ. أنا لا أنتمي إلى جمعيّة "مساعدة السيّدات" ولكنّني سوف أحيك لـفيث زوجين من الجوارب من هذا النّسيج الأسود بأسرع ما يمكنني فلتثقي بذلك. أنا لن أنسى إحساسي أبدًا يا زوجة الطّبيب العزيزة حين رأت عيناي ابنة كاهنٍ تمشي في جناح الكنيسة من دون أيّة جوارب، لم أعلم حقًّا في أيّ اتّجاهٍ أنظر."

كانت الآنسة كورنيليا قد وفدت إلى جلين للتّسوّق والمرور إلى "إنجلسايد" للتّحدّث بشأن ما جرى فقالت متأوّهة: "كما أنّ الكنيسة كانت تعجّ بالميثوديّين في الأمس. أنا أجهل السّبب ولكن كلّما يقوم أطفال الدّير بفعلٍ مشين، تكون الكنيسة مكتظّةً بالميثوديّين لا محال. كانت عينا السيّدة "ديكون هازارد" على وشك السّقوط من رأسها وحين خرجت من الكنيسة قالت "حسنًا كان ذلك العرض لائقًا، أنا أشفق على المشيخيّين حقًّا." وكان علينا أن نصمت ونتقبّل كلامها إذ لم نكن نملك ما نقوله."

قالت سوزان متجهّمة: "بل هناك ما كان في وسعي قوله يا زوجة الطّبيب العزيزة لو أنّني سمعتها. لقلت أوّلًا أنّني أرى إظهار ساقين عاريتين نظيفتين ليس أقلّ لباقةً من ارتداء جوارب مثقّبة، كما كنت لأضيف قائلةً أنّنا نحن المشيخيّين في غنى عن شفقتكم بما أنّنا نملك في صفّنا كاهنًا يسعه أن يعظ خلافًا لكاهن الميثوديّين. كنت لأسحق السيّدة "ديكون هازارد" يا عزيزتي زوجة الطّبيب يمكنك أن تثقي بكلامي."

ردّت الآنسة كورنيليا: "أتمنّى لو لم يكن السيّد ميريديث واعظًا مذهلًا ولو أنّه يهتمّ بأسرته أفضل ممّا يفعل. يمكنه على الأقلّ أن يلقي نظرةً خاطفةً على أطفاله قبل أن يذهبوا إلى الكنيسة ويتأكّد من أنّهم

متأنّقين ولبقين. لقد سئمت من التماس الأعذار له، صدّقيني."

في تلك الأثناء، كانت روح فيث تعذّبها في وادي قوس المطر. كانت ماري فانس هناك وكانت في مزاجٍ لإلقاء المحاضرات كعادتها، وجعلت فيث تفهم أنّها قد جلبت العار لنفسها ولوالدها بلا رجعة وأنّها، هي ماري فانس، قد انتهت من أمرها. كان الجميع يتحدّثون وكان الجميع يقولون الكلام نفسه.

ختمت قائلة: "أنا أشعر أنّني لا أستطيع أن أصادقك بعد الآن."

صاحت نان بلايث: "إذن سوف نصادقها نحن، وإن لم ترغبي في ذلك بعد الآن فأنت غير مرحّبٍ بك في وادي قوس المطر يا آنسة فانس."

كانت نان تظنّ في سرّها أنّ فيث قد اقترفت فعلًا مخريًا ولكنّها لم تكن ستأذن لـماري فانس أن تعالج الأمر بهذا الأسلوب الفوقيّ.

ناحت ماري قائلة: "ليس الأمر أنّني لا أرغب في ذلك ولكنّني إن استمررت بمصادقة فيث فسوف يقول النّاس أنّني أحرّضها على هذه الأفعال، فالبعض يقولون ذلك الآن صدّقي أو لا تصدّقي. لايمكنني أن أخاطر بالسّماح لمثل ذلك أن يُقال عنّي بما أنّني الآن أعيش في مكانٍ محترم وأحاول أن أصبح آنسة. وأنا لم أحضر إلى الكنيسة عارية السّاقين حتّى في أصعب أيّامي. أنا لم أفكّر مطلقًا في الإقدام على هكذا أمر ولكنّ السيّدة "آلك" العجوز البغيضة تلك تقول أنّ فيث لم تعد الفتاة نفسها منذ أن بقيت أنا في الدّير وتقول أنّ "كورنيليا إيليوت" سوف تندم على اليوم الذي آوتني فيه وذلك يؤذي مشاعري صدّقوني ولكنّني أكثر قلقًا على السيّد ميريديث."

قالت دي باحتقار: "لا أظنّ أنّه عليك أن تقلقي عليه فذلك غير ضروريٍّ على الأرجح. والآن يا عزيزتي فيث كفّي عن البكاء وأخبرينا لم فعلت ذلك؟"

وضّحت فيث موقفها وعيناها مغرورقتان بالدّموع. تعاطفت فتيات بلايث معها حتّى أنّ ماري فانس وافقت أنّ فيث كانت في موقفٍ لا تحسد عليه غير أنّ جيري، والذي صُعق ممّا سمعته أذناه، أبى أن يلين. إذن هذا ما كانت تعنيه تلك التّلميحات الغامضة التي تلقّاها في المدرسة! قام باصطحاب فيث وماري إلى المنزل من دون أيّ مجاملة وعقد نادي السّلوك الحسن اجتماعًا طارئًا في المقبرة للحكم في قضيّة فيث.

قالت فيث بتمرّد: " أنا لا أرى ما الضّرر الذي تسبّبت به إذ لم يظهر الكثير من ساقيّ. لم يكن ذلك خطأ ولم يتأذّ أيّ أحد. "

"سوف يتسبّب ذلك بالأذى لوالدنا وأنت تعلمين ذلك فأنت تعلمين أنّ الجميع يلومونه متى ما تورّطنا في أيّ فعلٍ غير مألوف. "

تمتمت فيث قائلة: "أنا لم أفكّر في ذلك."

"وهنا تكمن المشكلة. أنت لم تفكّري وكان يجدر بك أن تفعلي. تلك غايتنا من نادي السّلوك الحسن، أن يساعدنا في تربية أنفسنا وجعلنا نفكّر. لقد تعهّدنا بالتوقّف والتّفكير دائمًا قبل أن نقدم على أيّ عمل وقد نقضت ذلك العهد وينبغي لك الآن تلقّي العقاب يا فيث، عقابًا شديدًا! سوف تلبسين تلك الجوارب المقلّمة إلى المدرسة لمدّة أسبوع وهذا هو عقابك. "

"آه جيري ألن يفي يومٌ واحدٌ بالغرض أو يومين؟ ليس لأسبوعٍ كامل! "

قال جيري بتعنّت: "بل لأسبوعٍ كامل وذلك منصف. فلتسألي جيم بلايث إن أحببت. "

شعرت فيث بأنّها تفضّل أن تنصاع للأمر على أن تسأل جيم بلايث سؤالًا كهذا وبدأت تدرك أنّ جريمتها كانت مشينةً بحقّ.

فتمتمت بقليلٍ من الاستياء: "سأفعلها إذًا. "

قال جيري بصرامة: "أنت تفلتين بجريمتك بسهولة ومهما كانت العقوبة، التي ستُفرض عليك فذلك لن يساعد والدنا ولن ينكفّ النّاس عن الاعتقاد بأنّك فعلت ذلك بدافع العفرتة وسوف يلومون والدنا على عدم ردعنا. لن نتمكّن أبدًا من توضيح موقفنا للجميع."

أرهق هذا الجانب من القضيّة تفكير فيث. كان في وسعها تحمّل إدانتها ولكنّ حقيقة أنّ والدها سوف يكون الملام كانت تعذّبها. لو علم النّاس بالحقائق الصّحيحة خلف هذه القضيّة فلن يلوموا والدها. ولكن، كيف لها أن تعلمهم جميعًا؟ إنّ الوقوف في الكنيسة وتوضيح الأمور للجميع كما فعلت من قبل أمرٌ محال. كانت فيث قد سمعت من ماري فانس عن ردّة فعل الرعيّة إزاء تصرفها، وأدركت أنّه لا ينبغي لها أن تكرّر الأمر. لازم القلق فيث لنصف أسبوع ثمّ أُلهمت بفكرة وهمّت بتنفيذها على الفور. قضت ليلتها تلك في العليّة برفقة مصباحٍ ودفتر تمارين وراحت تكتب بانكباب بوجنتين متورّدتين وعينين برّاقتين. ذلك هو الحلّ! يا لفطنتها لإتيانها بهذه الخطّة الأفّاكة! سوف تصلح جميع الأمور وتوضّح موقفها بدون التسبب بفضيحة. كانت السّاعة الحادية عشر حين أنهت فيث تكفيرها عن خطيئتها وزحفت إلى الفراش عيّانة غير أنّها كانت منشرحة الصّدر.

في غضون بضعة أيّام، صدرت النّشرة الأسبوعيّة التي تنشر في جلين تحت اسم "الصّحيفة" كالعادة فأثارت الجلبة مجدّدًا في أنحاء جلين. شغلت رسالةٌ وُقّعت باسم فيث ميريديث مجالًا بارزًا من الصّفحة الأولى وكانت كالتّالي

إلى من يهمّه الأمر:

أودّ أن أوضّح للجميع كيف انتهى بيّ الأمر بالحضور إلى الكنيسة بلا جوارب، كي يعلم الجميع أنّ والدي ليس الملام في ذلك البتّة وأنّه لا ينبغي للعجائز النّمامين أن يلوموه على ذلك لأنّها ليست الحقيقة.

لقد أعطيت زوج الجوارب الأسود الوحيد الذي كنت أملكه لليدا مارش لأنّها لا تملك أيّة جوارب، وكانت قدماها الصّغيرتان باردتين للغاية وأشفقت على حالها. لا يجب أن يبقى أيّ طفلٍ حافي القدمين ضمن جماعةٍ من المسيحيّين قبل أن تذوب جميع الثّلوج وأظنّ أنّه يتوجّب على الجمعيّة أن يعطوها جوارب. بالطّبع أنا أعلم أنّهم يرسلون أشياءً للأطفال الوثنة الصّغار ولا بأس في ذلك وهي مبادرةٌ لطيفة، ولكنّ الطّقس حيث يعيش أطفال الوثنة أكثر دفئًا من هنا، وأظنّ أنّه ينبغي على النّساء في كنيستنا أن يهتممن لأمر "ليدا" وألّا يتركن هذا العبء على عاتقي. حين قمت بإعطائها جواربي، كنت قد غفلت تمامًا عن حقيقة أنّني لم يكن لديّ زوج آخر من الجوارب السّوداء غير المثقّوبة، ولكنّني مسرورةٌ لأنّني أعطيتها لها وإلّا لما ارتاح ضميري. وحين غادرت تلك المسكينة وقد بدت فخورةً وجذلة، تذكّرت أنّني لم أكن أملك سوى الجوارب الحمراء والزّرقاء المريعة التي حاكتها لي الخالة مارثا في الشّتاء الماضي من بعض الخيوط التي كانت السيّدة "جوزيف بور" من جلين الشّماليّة قد أرسلتها إلينا. كانت خيوطًا خشنةً ومعقّدة ولم أر أيًّا من أطفال السيّدة "بور" يرتدون ملابس صُنعت من نسيجٍ كهذا، ولكنّ ماري فانس قالت أنّ السيّدة "بور" تعطي الكاهن كلّ ما لا تلبسه أو تأكله وتظنّ أنّ ذلك سيكون جزءًا من الرّاتب الذي وقّع زوجها على دفعه ولكنّه لم يفعل أبدًا.

لم أطق تحمّل ارتداء تلك الجوارب المقيتة فهي قبيحةٌ جدًّا وخشنة وتصيبني بالحكّة وكان الجميع ليسخر منّي. فكّرت في بادئ الأمر في التّظاهر بالمرض والتخلّف عن الذّهاب إلى الكنيسة في اليوم التّالي، ثمّ قرّرت ألّا أفعل لأنّ ذلك سيكون تمثيليّةً كاذبة وأخبرنا والدنا بعد رحيل والدتنا أنّه لا يجب علينا أن نفعل ذلك أبدًا، فتمثيل الكذبة يساوي التفوّه بها على الرّغم من أنّي أعرف بعض الأشخاص هنا في

جلين ممّن يفعلون ذلك، ولا يبدو أنّهم يشعرون بالاستياء حيال هذا الأمر على الإطلاق. لن أقوم بذكر أيّ أسماء ولكنّني أعرف من هم وكذلك والدي.

وبعدها بذلت قصارى جهدي كي أُصاب بنزلة برد عن طريق وقوفي حافية القدمين في كومةٍ من الثّلج في مقبرة الميثوديّين إلى أن سحبني جيري ولكنّني لم أصب بأيّ ضرر ولذا فلم أتمكّن من التملّص من ذهابي إلى الكنيسة. فقرّرت في آخر المطاف أن ألبس حذائي وحسب وأن أذهب بتلك الطّريقة. لا يسعني أن أفهم لم كان ذلك خطأ فقد حرصت على تنظيف ساقيّ جيّدًا، ولكنّ والدي ليس الملام في جميع الأحوال، فقد كان في مكتبه يتفكّر في خطابه وبعض الأمور السّماويّة الأخرى، واختفيت عن أنظاره قبل ذهابي إلى مدرسة الأحد. إنّ والدي لا ينظر إلى سيقان الآخرين في الكنيسة لذا وبالطّبع لم يلحظ ساقيّ على خلاف جميع النّمامين، الذين لاحظوا وراحوا يتحدّثون في الأمر وهذا هو السّبب الذي دفعني إلى كتابة هذه الرّسالة لـ "الصّحيفة" كي أوضّح موقفي. أظنّ أنّني اقترفت خطأً مشينًا بما أنّ الجميع يقولون ذلك وأنا آسفة وها أنا الآن ألبس تلك الجوارب الفظيعة لمعاقبة نفسي على فعلتي بالرّغم من أنّ والدي قد اشترى لي زوجين جديدين بمجرّد أن افتتح السيّد "فلاج" متجره صبيحة يوم الإثنين. ولكنّ كلّ ماحدث كان ذنبي وإن قرّر النّاس أن يلوموا والدي على ذلك بعد قراءتهم لهذه الرّسالة فهم ليسوا مسيحيّين ولذا فلا يهمّني قولهم.

هناك أمرٌ آخر أودّ توضيحه قبل أن أختتم رسالتي، أخبرتني ماري فانس أنّ السيّد "إيفن بويد" يتّهم أسرة "لو باكسترز" بسرقة البطاطا من بستانه الخريف الفائت ولكنّهم لم يلمسوا البطاطا خاصّته، صحيحٌ أنّهم فقراء ولكنّهم صريحون، بل كانت تلك فعلتنا، أنا وجيري وكارل، لم تكن أونا برفقتنا في ذلك الوقت. لم نظنّ أبدًا أن ذلك يعدّ سرقة، كنّا

في حاجةٍ إلى بضع حبّاتٍ من البطاطا وحسب لطهيها فوق النّار ذات ليلةٍ في وادي قوس المطر، وتناولها إلى جانب سمك السّلمون المرقّط المقليّ، لذا قفزنا من فوق السّياج وقطفنا بعضها. كانت حبّات البطاطا صغيرةً جدًّا لأنّ السيّد "بويد" لم يضع ما يكفي من السّماد في التّربة، فاضطررنا إلى قطف الكثير من السّويقات حتّى نحصل على كفايتنا ولم تكن الحبّات أكبر من الكرات. ساعدنا والتر ودي بلايث في تناولها ولكنّهما لم ينضمّا إلينا إلى أن طبخناها، ولم يعلما من أين أتينا بها لذا فلا ذنب لهما في ذلك، بل هو ذنبنا نحن فقط. لم نقصد أن نسبّب الأذى ولكن إن كان ما فعلناه يعدّ سرقة فنحن آسفون وسوف ندفع ثمنها للسيّد "بويد" إن كان سينتظرنا إلى أن نكبر فنحن لا نملك المال الآن، لأنّنا لسنا في السّن المناسب لكسب المال بعد، وتقول "الخالة مارثا" أنّ تدبّر أمور هذا المنزل يستنزف كلّ سنتٍ من راتب والدي حتّى عندما يتلقّاه بانتظام... الأمر الذي لا يحصل في معظم الأحيان. ولكن لا ينبغي للسيّد "بويد" أن يلوم أسرة "لو باكسترز" ويسيء إلى سمعتهم بعد الآن لأنّهم أبرياء.

مع فائق الاحترام،
فيث ميريديث."

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

26
الآنسة كورنيليا ترى الأمور من منظورٍ جديد

قالت آن مسلوبة القلب: "بعد أن أموت يا سوزان أريد أن أعود إلى الأرض في كلّ مرّةٍ تزهر فيها أزهار النّرجس البريّ في هذه الحديقة. قد لا يتمكّن أيّ أحدٍ من رؤيتي ولكنّني سأكون هنا. إن كان أيّ أحدٍ موجودٌ في الحديقة في ذاك الوقت، أظنّ أنّني سوف آتي في مساءٍ كهذا المساء تمامًا ولكنّني قد أحضر عند الفجر وحسب، فجر ربيعيٍّ ذي لونٍ ورديٍّ شاحب، فلن يروا سوى أزهار النّرجس وهي تتراقص بهمجيّة وكأنّ ريحًا ثائرةً قد هبّت بقربها ولكنّني سأكون أنا الفاعلة."

قالت سوزان: "لا شكّ يا سيّدتي زوجة الطّبيب أنّك لن تفكّري في التّباهي بأشياءٍ سفليّة كأزهار النّرجس بعد موتك، كما أنّني لا أؤمن بالأشباح إن كانت واضحةً للعيان أم لا."

"آه سوزان لن أكون شبحًا! ذلك يبدو مريعًا. بل سوف أكون نفسي وسوف أجري هنا وهناك عند الشّفق والغسق وأتأمّل جميع الأماكن العزيزة إلى قلبي. ألا تذكرين كم شعرت بالاستياء حين غادرت منزل

الأحلام يا سوزان؟ لم أعتقد أنّني سوف أحبّ إنجلسايد أبدًا ولكنّني أحببتها. أنا أحبّ كلّ بقعةٍ وكلّ حجرٍ في هذا المكان."

قالت سوزان والتي كانت روحها متعلّقة في إنجلسايد:

"أنا أحبّ هذا المكان أيضًا ولكن لا ينبغي لنا أن نهتمّ بالأشياء الدّنيويّة كثيرًا يا عزيزتي زوجة الطّبيب، ثمّة أمور كالحرائق والزّلازل الأرضيّة لذا فيجب أن نكون على أهبة الاستعداد دائمًا. لقد اندلع حريقٌ في منزل أسرة "توم مكالستر" في الميناء منذ ثلاثة أيّام ويقول البعض أنّ "توم مكالستر" هو من أضرم النّار في منزله للحصول على مبالغ التّأمين وقد يكون ذلك صحيحًا أو لا يكون. ولكنّني أنصح الطّبيب بتفقّد مدخنات المنزل فدرهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج. وها هي السّيدة إيليوت مقبلةٌ عبر البوّابة وكأنّها مصابةٌ بالدّوار."

"عزيزتي آن هل قرأت الصّحيفة هذا اليوم؟"

كان صوت الآنسة كورنيليا يرتعش وكان ذلك يعود لتأثّرها ولحقيقة أنّها كانت قد هرعت إلى هنا بسرعة البرق من المتجر وخطفت أنفاسها."

انحنت آن بين أزهار النّرجس لتخفي ابتسامتها، كانت هي وجيلبرت قد ضحكا من قلبيهما بسبب الصّفحة الأولى من الصّحيفة ذلك اليوم، ولكنّها كانت تعلم أنّ الأمر بالنّسبة للآنسة كورنيليا كان بمثابة الفاجعة وينبغي لها ألّا تجرح مشاعرها بإظهار أيّ ردّة فعلٍ متهوّرة.

سألت الآنسة كورنيليا بيأس: "أليس هذا مريعًا؟ ما العمل الآن؟"

كانت الآنسة كورنيليا قد قطعت عهدًا على نفسها بعدم القلق حيال ألاعيب أطفال الدّير ولكنّها استمرّت بالقلق دون تغيير.

شقّت الآنسة كورنيليا الطّريق إلى الشّرفة حيث كانت سوزان تحيك وكان كلٌّ من ريلا وشيرلي يحفظان مبادئ القراءة. كانت سوزان قد انتهت من حياكة زوج الجوارب الثّاني لـفيث. لم تقلق سوزان أبدًا

بشأن فقر البشريّة بل كانت تفعل ما تراه سيؤدّي إلى تحسين الأحوال وتترك الباقي إلى القوى الإلهيّة ببالٍ مطمئنّ.

كانت سوزان قد قالت لآن ذات مرّة: "تظنّ كورنيليا إيليوت أنّها وُلدت لتحكم هذا العالم يا زوجة الطّبيب العزيزة لذلك فدائمًا ما يُثار جزعها بشأن أمرٍ ما. أمّا أنا فلا أظنّ أنّني أشبهها في ذلك بل أنا أتكيّف بهدوء، حتّى أنّه يخطر لي في بعض الأحيان أنّ الأمور قد تتحسّن قليلًا ولكن ليس علينا أن نغذّي تلك الأفكار فهي تضايقنا وحسب ولا توصلنا إلى أيّ حلّ."

قالت آن وهي تسحب كرسيًّا مزوّدًا بوسادة كي تجلس الآنسة كورنيليا: "أنا لا أرى أنّ هناك ما في وسعنا أن نفعله الآن ولكن كيف وافق السيّد "فيكرز" على طباعة تلك الرّسالة؟ كان عليه أن يكون أكثر تيقّظًا."

"السيّد "فيكرز" متغيّب يا عزيزتي آن فقد رحل إلى "نيو برنسويك" لمدّة أسبوع وقد تولّى ذاك الوغد الشّاب "جو فيكرز" تحرير الصّحيفة في غيابه. بالطّبع ما كان السيّد "فيكرز" ليسمح بنشر تلك الرّسالة حتّى لو أنّه ميثوديّ ولكنّ "جو" قد وجدها نكتةً ظريفة. كما تقولين، لقد فات الأوان على فعل أيّ شيءٍ الآن بل علينا أن نتعايش مع ما حصل ولكن إن التقيت بـ "جو فيكرز" في مكانٍ ما فسوف أؤنّبه تأنيبًا لن ينساه بتلك السّرعة. أردت من "مارشال" أن يوقف اشتراكنا في الصّحيفة على الفور، ولكنّه قهقه وقال أنّ هذا العدد هو الوحيد الذي يوجد فيه ما يقرأ منذ سنوات، لن يأخذ "مارشال" الأمور بجديّةٍ في حياته، تمامًا كالرّجال. ولحسن الحظّ، فالسيّد "إيفان بويد" مثله أيضًا، إنّه يعتبر الأمر مزحة ويضحك، وهو ميثوديٌّ آخر! أمّا بالنّسبة للسيّدة "بور" من جلين الشّماليّة فلا شكّ في أنّها سوف تشتاط غضبًا وسوف تغادر أسرتها الكنيسة ومهما نظرت في الأمر فالخسارة لن تكون فادحة.

كانت سوزان تكنّ ضغينةً لتلك المرأة وأضحكها ذكر فيث لها في رسالتها فقالت: "إنّها تستحقّ ذلك، سوف تكتشف أنّها لن تتمكّن من خداع كاهنٍ ميثوديٍّ بنسيجٍ رديء بدلًا من دفع راتبه."

قالت الآنسة كورنيليا بكآبة: "لعلّ أسوأ ما في الأمر هو أنّه ليس هناك أمل في تحسّن الأمور ـ بما أنّ السيّد ميريديث كان يذهب لمقابلة "روزماري ويست" كنت آمل أن يصبح للدّير ربّة منزلٍ لائقة قريبًا ولكنّ ذلك ذهب في مهبّ الرّيح. أفترض أنّها لن تتزوّجه بسبب الأطفال، هذا ما يظنّه الجميع على الأقلّ."

قالت سوزان والتي كانت عاجزةً عن تصوّر أنّ أيّ أحدٍ قد يرفض كاهنًا: "أنا لا أعتقد أنّه عرض عليها الزّواج."

"حسنًا، لا أحد يعلم شيئًا بهذا الشّأن ولكن من المؤكّد أنّه انكفّ عن الذّهاب لزيارتها ولم تكن روزماري تبدو في حالةٍ جيّدة طيلة الرّبيع. آمل أن تحسّن زيارتها ل "كينجسبورت" من حالها. لقد ارتحلت منذ شهرٍ وسوف تبقى هناك لشهرٍ آخر كما فهمت. أنا لا أذكر أنّ روزماري قد تغيّبت عن المنزل من قبل فهي وإيلين لا تتحمّلان الافتراق عن بعضهما البعض. ولكنّني فهمت أنّ إيلين هي من أصرّت على رحيلها هذه المرّة وفي هذه الأثناء، فإنّ إيلين و "نورمان دوجلاس" يستعيدان عواطف الماضي."

سألت آن مقهقهة: "أحقًّا؟ لقد سمعت إشاعةً عن ذلك ولكنّني لم أصدّقها."

"بل صدّقي صدّقي يا عزيزتي آن فالجميع يعلم بهذا الأمر. لم يثر "نورمان" الشّكوك حول نواياه في أيّ شيء. دائمًا ما كان يغازل في العلن. لقد أخبر "مارشال" أنّه لم يفكّر في إيلين لسنوات ولكنّه عندما حضر إلى الكنيسة لأوّل مرّة في الخريف الماضي ورآها، وقع في حبّها مجدّدًا. لقد قال أنّه نسي كم كانت آيةً في الجمال. أتصدّقين أنّه لم يكن

قد رآها منذ عشرين عامًا؟ بالطّبع فهو لم يكن يحضر إلى الكنيسة أبدًا ولم تكن إيلين تتجوّل في غير هذه الأرجاء. آه، جميعنا نعرف ما يريده "نورمان" ولكن ما تريده إيلين مسألةٌ مختلفة. ولا أريد أن أؤكّد إن كان الأمر سيتنهي بالزّواج أم لا."

أشارت سوزان بفظاظة: "لقد هجرها من قبل ولكنّني أعتقد أنّ بعض النّاس لا يضعون ذلك في حسبانهم يا زوجة الطّبيب العزيزة."

قالت الآنسة كورنيليا: "لقد هجرها في نوبة غضب وراح يتحسّر طيلة حياته، ذلك مختلفٌ عن الهجر بطريقةٍ قاسية. أنا عن نفسي، لم أبغض نورمان كما يفعل الآخرون. هو لن يتمكّن أبدًا من التّبجّح أمامي. أتساءل ما الذي جعله يعود إلى الكنيسة، أنا لم أتمكّن أبدًا من تصديق قصّة السيّدة "ويلسن" أنّ فيث قد أتت إلى منزله وقامت بتوبيخه كي يعود. كيف لها أن تؤثّر في نورمان دوجلاس؟ لقد كان في المتجر حين غادرت، وكاد ينفجر من الضّحك بسبب تلك الرّسالة المخزية. كان في وسع المرء أن يسمع صوته من نقطة فوروينذز إذ راح يصيح قائلًا:

"إنّها أعظم فتاةٍ في العالم بأسره، إنّها تتمتّع بوافرٍ من الجرأة، لا بل هي تنضح بالجرأة وجميع العجائز يرغبن في كبحها، تبًّا لهنّ! ولكنّهنّ لن يستطعن ذلك أبدًا! من الأفضل لهنّ أن يحاولن إغراق سمكة. فلتحرص على وضع مزيدٍ من السّماد في تربة البطاطا في السّنة القادمة. هو هو هو!" ثمّ ضحك إلى أن هزّ السّقف."

أشارت سوزان: "إنّ السيّد دوجلاس يدفع الرّاتب كما ينبغي."

"آه إنّ نورمان ليس لئيمًا بطريقةٍ أو بأخرى، قد يدفع الآلاف دون أن يرفّ له رمش وقد يجأر كالثّور إن اضطرّ لدفع خمس سنتاتٍ أكثر ممّا ينبغي. ثم إنّه معجبٌ بعظات السيّد ميريديث وهو مستعدٌّ دائمًا للإنفاق أكثر كلّما ضحك أكثر. يكاد إفريقيٌّ وثنيٌّ عارٍ أسود يقدّر المسيحيّة

أكثر منه وهذا لن يتغيّر. ولكنّه فطنٌ ومثقّف وينتقد الخطابات كما ينتقد المحاضرات. على أيّة حال، من الجيّد أنّه يساند السيّد ميريديث وأبناءه لأنّهم سوف يحتاجون إلى الأصحاب أكثر من أيّ شيءٍ آخر بعد ما حدث. لقد سئمت من التماس الأعذار لهم صدّقيني."

قالت آن بجديّة: "أتعلمين يا آنسة كورنيليا، أظنّ أنّنا جميعنا كنّا نتذرّع بالكثير من الأعذار وهذا تصرّفٌ أحمق وحريٌّ بنا أن نعدل عنه. سوف أخبركم بما أرغب في فعله ولكنّني لن أنفّذه بالطّبع."

لاحظت آن ومضةً من الهلع في عينيّ سوزان ثمّ تابعت قائلة:

"قد يكون ذلك غير مألوفًا ويجدر بنا الالتزام بالتّقاليد ولو على جثّتنا حين نبلغ عمرًا وقورًا. ولكنّني أرغب في فعل ذلك، أرغب في استدعاء جمعيّة "مساعدة السيّدات" وجمعيّة "الفتيات الخيّاطات" لعقد اجتماع وأدعو إليه كلّ الميثوديّين الّذين يشنّرون على آل ميريديث بيد أنّني أظنّ أنّنا لو أقلعنا نحن المشيخيّون عن انتقادهم وإيجاد الأعذار سوف نجد أنّ الطّوائف الأخرى لن تكترث لسكّان ديرنا إلّا قليلًا. سوف أقول لهم "أيّها الرّفاق المسيحيّون..." مع التّشديد على كلمة "المسيحيّين" لديّ ما أقوله لكم وأودّ قوله بصدقٍ وصراحة فلتقدّروا كلامي وتنقلوه إلى أسركم. لا حاجة لكم أيّها الميثوديّون في الإشفاق علينا ولا حاجة لنا نحن المشيخيّون في الإشفاق على أنفسنا وسوف نكفّ عن ذلك، كما سنقول بجرأةٍ وصراحة لجميع العذّال والمتعاطفين أنّنا فخورون بكاهننا وبأسرته. إنّ السيّد ميريديث أفضل واعظٍ في تاريخ كنيسة "جلين سانت ماري" ناهيكم عن أنّه معلّمٌ خاشعٌ ومخلصٌ للحقيقة والإحسان المسيحيّ، إنّه صديقٌ مؤمن وكاهنٌ أصيل الرّأي في جميع المسائل المهمّة كما أنّه رجلٌ لبقٌ ومثقّفٌ وأصيل وعائلته تستحقّه. "جيرالد ميريديث" هو أذكى تلميذٍ في مدرسة جلين حتّى أنّ السيّد "هازارد" يقول أنّ أمامه مستقبلٌ واعد وهو فتًى شهمٌ وشريفٌ

وصدوق أمّا "فيث ميريديث" فهي آيةٌ في الجمال وهي حسناء بقدر ما هي ملهمة ومبدعة وبعيدة كلّ البعد عن كونها مبتذلة. لا تملك جميع فتيات جلين الأخريات مجتمعات الاندفاع والدّهاء والابتهاج والجرأة التي تملكها، إنّها لا تملك عدوًّا واحدًا في كلّ العالم فجميع الّذين يعرفونها يحبّونها. كم من الأطفال أو البالغين يمكن أن يُقال فيهم مثل هذا الكلام؟ "أونا ميريديث" تجسيدٌ للّطافة وسوف تغدو امرأةً محبوبة. وقد يغدو "كارل ميريديث" بحبّه للنّمل والضّفادع والعناكب عالم حيواناتٍ ونباتاتٍ تقدّره كندا لا بل العالم بأسره. أتعرفون أيّة أسرةٍ أخرى في جلين أو خارجها يُقال فيها كلّ هذه الأمور؟ دعكم من الأعذار والاعتذارات الخجولة فنحن نعتزّ بكاهننا وأطفاله المذهلين!"

توقّفت آن لبرهةٍ كي تلتقط أنفاسها بعد خطابها المحتدم ولأنّها لم تكن تثق بنفسها للتّحدّث أكثر في وجه الآنسة كورنيليا التي كانت تحدّق فيها وكأنّ موجةً من الأفكار الجديدة اجتاحتها ثمّ عادت إلى الشّاطئ تضرب وتلهث بشجاعة.

"أتمنّى لو تعقدي هذا الاجتماع وتقولي كلّ ما قلتيه الآن بالحرف الواحد! لقد جعلتني أشعر بالعار من نفسي للمرّة الأولى في حياتي ولن أنكر ذلك. بالطّبع كان علينا أن نتحدّث بهذه الطّريقة ولا سيّما مع الميثوديّين فكلّ كلمةٍ قلتيها صحيحة. لقد أغلقنا أعيننا عن الأمور المهمّة وركّزنا على الأمور التّافهة التي لا تساوي جناح بعوضة. آه يا عزيزتي آن يمكنني أن أرى الحقيقة حين تحفر في ذهني هكذا. لن تعتذر "كورنيليا مارشال" بعد اليوم! بل سوف أمشي شامخة الرّأس منذ الآن، صدّقيني، على الرّغم من أنّني قد أفضفض بنات نفسي لك إن أقدم أطفال ميريديث على أيّ فعلٍ طائشٍ ثانيةً. لا أدري حتّى لم شعرت بالاستياء هكذا إزاء تلك الرّسالة فهي مجرّد دعابةٍ طريفةٍ كما قال نورمان. لا تتمتّع الكثير من الفتيات بالظّرافة الكافية لكتابة مثل تلك

الرّسالة كما أنّها كانت مزوّدة بالنّقط والفواصل كما ينبغي، وكانت خالية تمامًا من الأخطاء الإملائيّة. فليحذر الميثوديّون من التّفوّه بكلمةٍ واحدةٍ عنها فأنا لن أسامحهم تمامًا كما أنّني لن أسامح "جوفيكرز"، صدّقيني. أين هم باقي أطفالك هذه اللّيلة؟"

"والتر والتّوأم في وادي قوس المطر أمّا جيم فهو يدرس في العليّة."

"جميعهم مولعون بوادي قوس المطر. تظنّ ماري فانس أنّه أفضل مكانٍ في العالم بأسره فقد تذهب إليه كلّ مساءٍ إن سمحت لها ولكنّني لا أشجّع تسكّعها. ثمّ إنّني أفتقدها حين لا تكون في الأرجاء يا عزيزتي آن، من كان يظنّ أنّني سأتعلّق بها هكذا؟ ولكنّني أرى أخطاءها وأحاول توجيهها بيد أنّها لم تتلفّظ بأيّة كلمةٍ سليطة منذ أن أقامت في منزلي وهي تمدّ لي يد العون على الدّوام، في آخر المطاف يا عزيزتي آن فأنا لم أعد شابّةً كما كنت من قبل ولا داعي لنكران ذلك. كان عمري تسعةٌ وخمسون في عيد ميلادي الأخير ولكنّني لا أشعر بذلك ولا جدوى من دحض كلام الإنجيل."

***

27
حفلٌ موسيقيّ مقدّس

على الرّغم من تغيّر وجهة نظر الآنسة كورنيليا غير أنّها لم تتمكّن من تمالك أعصابها بسبب فعلة أطفال ميريديث الأخيرة. تعاملت مع الموقف ببراعةٍ بين العامّة فراحت تقول لجميع النّمّامين على غرار ما قالته آن بكثيرٍ من التّشديد والقسر حتّى أنّ من سمعها وجدوا أنفسهم مغفّلين في آخر المطاف، لأنّهم يبالغون في إعطاء خدعةٍ طفوليةٍ أكثر ممّا تستحقّ. أمّا في السرّ فقد سمحت الآنسة كورنيليا لنفسها أن تريح بالها وترثى لحالها أمام آن.

"أقاموا حفلًا موسيقيًّا في المقبرة مساء الخميس يا عزيزتي آن حين كان اجتماع صلاة الميثوديّين قائمًا. جلسوا هناك على شاهدة قبر "هيزيكيا بولوك" وراحوا يغنّون لساعةٍ متواصلة. أنا أتفهّم طبعًا أنّهم لم يغنّوا سوى التّراتيل وما كان الأمر ليكون بهذا السّوء لو أنّهم لم يفعلوا شيئًا آخر ولكنّني سمعت أنّهم اختتموا بأغنية "بولي وولي دودل" كاملة بينما كان "ديكون باكستر" يصلّي."

قالت سوزان: "لقد كنت هناك تلك اللّيلة وعلى الرّغم من أنّني لم

أخبرك بأيٍّ من هذا يا عزيزتي زوجة الطّبيب، غير أنّني لم أنفكّ عن التّفكير أنّه لمن الأسف أنّهم اختاروا تلك اللّيلة بالتّحديد. كان سماعهم يغنّون تلك الأغنية التّافهة ملء حناجرهم وهم جالسين هناك بين مراقد الموتى مقشعرًّا للأبدان."

قالت الآنسة كورنيليا بنقم: "أنا أجهل ما الذي كنت تفعلينه في اجتماع صلاة الميثوديّين."

ردّت سوزان بعناد: "أنا لم أر في حياتي أنّ الميثوديّة مثيرةٌ للاهتمام ولكنّني، وكما أردت أن أقول قبل أن أقاطع، على الرّغم من امتعاضي فأنا لم أخضع للميثوديّين وحين قالت السيّدة "ديكون باكستر" عند خروجنا "يا له من عرضٍ مشين!" نظرت في عينيها وقلت "جميعهم مغنّون رائعون كما أنّ لا أحد من أعضاء جوقتكم يتكبّد عناء الحضور إلى اجتماعات صلواتكم يا سيّدة "باكستر" يبدو لي أنّ أصواتهم لا تكون متناغمة سوى أيّام الأحد!" فصمتت تمامًا وشعرت أنّني زجرتها كما تستحقّ غير أنّني كنت لأتمادى أكثر من ذلك يا زوجة الطّبيب العزيزة لو أنّهم فقط لم يغنّوا "بولي وولي دودل" إذ أنّه لأمرٌ فظيعٌ أن يفكّر المرء في غناء هكذا أغنية في مقبرة."

أفاد جيلبرت قائلًا: "كان بعض أولئك الموتى يغنّون "بولي وولي دودل" حين كانوا ما يزالون على قيد الحياة يا سوزان ولربّما ما يزالون يرغبون في سماعها."

رمقته الآنسة كورنيليا بنظرات المؤاخذة ثمّ عقدت العزيمة على التّلميح لآن في أيّ مناسبةٍ قادمة أنّها يجب أن تنصح الطّبيب بعدم التّفوّه بهكذا أمور لأنّها قد تدنّس سمعته وقد يخيّل إلى النّاس أنّه ليس من طائفة الأرثوذكس. صحيحٌ أنّ "مارشال" يتفوّه بأمورٍ أفظع في العادة ولكنّه لم يكن رجل ذا شأنٍ بين العامّة.

"حسبما فهمت أنّ والدهم كان في مكتبه طيلة الوقت وكانت النّوافذ

مفتوحةً ولكنّه لم يلحظهم مطلقًا. لا شكّ في أنّه كان غارقًا في كتابه كعادته غير أنّني تحدّثت إليه في هذا الأمر عندما زارني."

سألت سوزان بنبرةٍ عذول: "كيف تجرّأت يا سيّدة مارشال إيليوت؟"

"كيف تجرّأت؟ كان الأمر مجرّد مسألة وقتٍ قبل أن يفكّر أحدهم في التّجرّؤ على القيام بأمرٍ ما. لماذا؟ لقد قال أنّه لا يملك أدنى فكرةٍ عن رسالة فيث في الصّحيفة لأنّه لم يحبّ أيّ أحدٍ أن يعلمه بذلك، وطبعًا هو لا يقرأ الصّحيفة أبدًا، ولكنّني ظننت أنّه ينبغي له أن يكون على علمٍ بما حصل، كي يتسنّى له أن يتجنّب حدوث مثل هذه الأفعال في المستقبل فقال أنّه سوف يتحدّث إليهم ولكنّني متأكّدةٌ من أنّه سوف ينسى الأمر تمامًا بمجرّد عبوره خارجًا من بوّابتي. لا يتمتّع ذلك الرّجل بحسّ الفكاهة مطلقًا يا آن صدّقيني. لقد ألقى عظةً يوم الأحد الماضي عن كيفيّة تنشئة الأطفال، لقد كان خطابًا رائعًا وأسف جميع حضور الكنيسة لأنّ السيّد ميريديث لا يستطيع أن يطبّق ما يعظ به."

لقد ظلمت الآنسة كورنيليا السيّد ميريديث بظنّها أنّه سوف ينسى كلامها في أقرب وقت. إذ عاد إلى المنزل مكروبًا للغاية وحين عاد الأطفال من وادي قوس المطر تلك اللّيلة في وقتٍ متأخّرٍ أكثر ممّا ينبغي لهم التّجوّل هناك قام باستدعائهم لمكتبه.

دخل الأطفال إلى المكتب وقد اعتراهم شعورٌ بالرّهبة، لم يكن ذلك من عادة والدهم. ما الذي من الممكن أنّه يرغب بإخبارهم به؟ حاولوا عصر أدمغتهم لتذكّر أيّ اعتداءٍ ذي أهميّة قاموا به مؤخّرًا ولكنّ محاولاتهم باءت بالفشل. كان كارل قد سكب صحنًا مليئًا بالمربّى على ثوب السيّدة "بيتر فلاج" الحريريّ منذ ليلتين حين دعتها الخالة مارثا إلى العشاء ولكنّ السيّد ميريديث لم ينتبه لذلك ولم تشتك السيّدة "فلاج" من الأمر كونها امرأةً طيّبة، ثمّ إنّ كارل قد خضع لعقابٍ يقضي

بارتدائه ثوب أونا لبقيّة الأمسية.

ظنّت أونا فجأةً أنّ والدها قد ينوي إخبارهم أنّه مقبلٌ على الزّواج من "روزماري ويست" فراح قلبها يخفق خفقانًا عنيفًا وارتعشت قدماها. بعدها رأت أنّ والدها كان يبدو متجهّم الوجه ومغتمًّا للغاية. لا بدّ من أنّها كانت مخطئة.

قال السيّد ميريديث: "أيّها الأطفال لقد سمعت ما أمضّني كثيرًا، أصحيحٌ أنّكم جلستم في المقبرة طيلة أمسية الخميس وغنّيتم أغانٍ سفيهةٍ حين كان اجتماع الصّلاة قائمًا في كنيسة الميثوديّين؟"

هتف جيري بهلع: "يا للهول يا أبي! لقد نسينا تمامًا أنّ تلك اللّيلة كانت ليلة اجتماع صلاة الميثوديّين."

"إذًا فذلك صحيح، لقد قمتم بذلك حقًّا؟"

"أنا لا أعلم ما الذي تقصده بالأغاني السّفيهة يا أبي. لقد غنّينا التّراتيل، لقد كانا حفلًا موسيقيًّا مقدّسًا كما تعلم. ما الضّير في ذلك؟ صدّقني أنّنا نسينا أنّها كانت ليلة اجتماع صلاة الميثوديّين إذ كانوا يعقدون اجتماعاتهم في أمسيات الثّلاثاء، وبما أنّهم غيّروا موعدهم لأمسيات الخميس فمن الصّعب علينا التّذكّر."

"ألم تغنّوا سوى التّراتيل؟"

قال جيري وقد احمرّ وجهه: "لقد غنّينا أغنية "بولي وولي دودل" في الختام فقد قالت فيث "فلنختتم بأغنيةٍ مبهجة" ولكنّنا لم نقصد أن نسيء لأيّ أحد يا والدي، صدقًا لم نقصد."

خشيت فيث أن يلوم السيّد ميريديث جيري أكثر ممّا ينبغي فقالت: "كان الحفل الموسيقيّ فكرتي يا والدي. أنت تعلم أنّ الميثوديّين نفسهم قد أقاموا حفلًا موسيقيًّا في كنيستهم منذ ثلاثة أسابيع وظننت أنّه سيكون من الممتع أن نقيم حفلنا الخاصّ على غرارهم، غير أنّهم تلوا الصلوات في حفلهم في حين أنّنا لم نفعل، سمعنا أنّ النّاس يظنّون أنّ

صلاتنا في المقبرة فعلٌ لا يغتفر." وأردفت قائلة: "كما أنّك كنت جالسًا هنا طيلة الوقت ولم تنبس ببنت شفة."

"أنا لم ألحظ ما كنتم تفعلونه وبالطّبع فإنّ ذلك لا يعذرني وأنا أدرك أنّ اللّوم يقع عليّ أكثر منه عليكم ولكن لم غنّيتم أغنيةً سخيفةً كتلك في الختام؟"

تمتم جيري قائلًا: "نحن لم نفكّر."

وأحسّ أنّ عذره كان تافهًا جدًّا، لا سيّما أنّه قد وبّخ فيث بعنفٍ في اجتماعات نادي السّلوك الحسن لقلّة تفكيرها قبل الإقدام على أفعالها. وتابع قائلًا: "نحن آسفون يا والدي، صدقًا آسفون. يمكنك أن توبّخنا وتزجرنا كما يحلو لك فنحن نستحقّ ذلك على الدّوام."

ولكنّ السيّد ميريديث لم يوبّخهم أو يزجرهم بل جلس وضمّ الجناة الصّغار إليه، وتحدّث إليهم قليلًا بعطفٍ وحكمة فاعتراهم شعورٌ بالعار والنّدامة وأحسّوا أنّهم لن يتمكّنوا من التّصرّف بتهوّرٍ وسخافةٍ مجدّدًا.

وبينما هم يصعدون السّلالم همس جيري قائلًا: "سوف يتعيّن علينا أن نعاقب أنفسنا عقابًا أليمًا وشديدًا على فعلتنا هذه. سوف نعقد اجتماعًا للنّادي صباح الغد على الفور، ونقرّر كيف سنقوم بذلك. أنا لم أر والدنا مشتّتًا هكذا من قبل، ولكنّني أتمنّى لو يتّخذ الميثوديّون يومًا واحدًا لعقد اجتماع الصّلاة بدلًا من تغيير الموعد طيلة أيّام الأسبوع."

تمتمت أونا لنفسها: "على أيّ حال، أنا مسرورةٌ لأنّ ذلك لم يكن ما كنت أخشاه."

كان السيّد ميريديث قد جلس في المكتب خلفهم وأخفى وجهه في ذراعيه.

فقال: "أعنّي يا ربّ! أنا والدٌ ضنيك. آهٍ يا روزماري لو أنّك اهتممت وحسب!"

***

28
يوم صوم

عقد

نادي السّلوك الحسن اجتماعًا خاصًّا في الصّباح التّالي قبل دوام المدرسة. وبعد العديد من الاقتراحات كان صيام يومٍ كاملٍ هو العقاب الأنسب.

قال جيري: "لن نأكل شيئًا لمدّة يومٍ كامل. أنا أشعر بالفضول لمعرفة شعور الصّيام على أيّة حال وستكون هذه فرصةً مناسبة."

ظنّت أونا أنّ الصّيام عقابٌ سهل ودهشت لأنّ فيث وجيري لم يبتدعا عقابًا أكثر قسوة فسألت: "أيّ الأيّام سنختار؟"

قالت فيث: "فلنختر يوم الإثنين فغالبًا ما يكون عشاء أيّام الأحد مشبعًا أمّا وجبات يوم الإثنين فلا تكون كذلك أبدًا."

هتف جيري: "تلك هي الغاية تمامًا! لا يجدر بنا أن نختار اليوم الأسهل لصومه بل الأصعب والأصعب هو يوم الأحد لأنّنا، وكما قلت، غالبًا ما نتناول لحم الضّأن المشويّ عوضًا عن "الدّيتو" البارد في أيّام الأحد، ولن يكون العقاب منصفًا إن صمنا عن "الدّيتو". فلنختر يوم الأحد القادم، سيكون يومًا ملائمًا لأنّ والدنا سوف يتبادل مع كاهن "لوبريدج" الشّماليّة تقديم الخدمة الصّباحيّة ولن يعود حتّى المساء

وإن تساءلت الخالة مارثا ما الذي دهانا فسنخبرها على الفور أنّنا نصوم لخير أرواحنا وأنّ ذلك واردٌ في الكتاب المقدّس وأنّه ليس عليها أن تتدخّل، وأظنّ أنّها لن تفعل."

لم تتدخّل الخالة مارثا بل قالت بطريقتها المتمتمة النّكدة: "لأيّ نوعٍ من الحماقات تخطّطون أيّها الفاسدون الصّغار؟" ولم تفكّر بالأمر مجدّدًا. كان السيّد ميريديث قد غادر في الصّباح قبل أن يصحو أيّ أحد من دون تناول فطوره غير أنّ حدوث ذلك كان مألوفًا، إذ كان ينسى تناول الفطور في معظم الوقت، ولم يكن هناك من يذكّره به. كما أنّ الفطور -فطور الخالة مارثا- لم يكن صعب التّفويت حتّى أنّ "الفاسدين الصّغار" لم يشعروا بالحرمان لصومهم عن العصيدة المتكتّلة والحليب الفاسد اللذين كانت ماري فانس تزدريهما. ولكنّ الحال كانت مختلفةً وقت الغداء، ذلك أنّهم كانوا يتضوّرون جوعًا حينها وكانت رائحة الضّأن المشويّ التي قد تغلغلت في أرجاء الدّير شهيّةً بكلّ معنى الكلمة، على الرّغم من حقيقة أنّ اللّحم لم يكن ناضجًا البتّة ولم يستطيعوا تحمّلها. سارع الأطفال بيأسٍ إلى المقبرة حيث لا تصل الرّائحة، ولكنّ أونا لم تتمكّن من إشاحة بصرها عن نافذة حجرة الطّعام حيث كان كاهن "لوبريدج" الشمالية يأكل بهدوء.

تنهّدت قائلة: "ليتني أستطيع أن أحصل على قطعةٍ صغيرة وحسب."

أمرها جيري: "أصمتي. الأمر صعبٌ بلا ريب وهنا يكمن العقاب. يسعني أن أتناول صنمًا في هذه اللّحظة ولكن هل ترينني أتذمّر؟ فلنفكّر في شيءٍ آخر. علينا فقط ألّا نفكّر في معدتنا."

وقت العشاء، لم يشعروا بآلام الجوع التي عانوا منها طيلة اليوم.

قالت فيث: "أظنّ أننا بدأنا نعتاد على الأمر. ينتابني شعورٌ غريبٌ وكأنّني لست من هذا العالم ولكنّي لا أشعر بأنّني جائعة."

قالت أونا: "أشعر بشعورٍ غريبٍ في رأسي إنّه يدور من وقتٍ لآخر."

ولكنّها ذهبت إلى الكنيسة مع الآخرين بابتهاج. ولو لم يكن السيّد ميريديث غارقًا في خطابه ومسترسلًا فيه للحظ الوجه الشّاحب والعينين المجوّفتين في مقعد الدّير ولكنّه لم يلحظ شيئًا واستمرّ خطابه لوقتٍ أطول من العادة. وقبل أن يلقي التّرتيلة الختاميّة، انهارت "أونا ميريديث" عن المقعد وانطرحت أرضًا في غيبوبة.

كان الشّيخ السيّد "كلو" أوّل من وصل إليها فأخذ جسدها الهزيل الضّعيف من بين ذراعيّ فيث التي كانت شاحبةً من الذّعر، وأخذها إلى المجلس الكنيسيّ. نسي السيّد ميريديث أمر التّراتيل وكلّ شيءٍ آخر وسارع للّحاق بابنته وغادر الرعيّة المكان بأفضل ما يمكنهم.

قالت فيث لهثانة: "آه يا سيّد "كلو" هل ماتت أونا؟ هل قتلناها؟"

سأل الوالد الشّاحب: "ما الذي حصل لطفلتي؟"

قالت السيّدة "كلو": "أظنّ أنّها فقدت الوعي وحسب. آه ها قد جاء الطّبيب، حمدًا للّه!"

لم يعد جيلبرت أونا إلى وعيها بسهولة بل تطلّبه ذلك بعض الوقت إلى أن تمكّنت من فتح عينيها، ثمّ حملها إلى الدّير وتبعته فيث وهي تبكي بهستيريّةٍ لانفراجها.

"إنّها جائعةٌ وحسب فهي لم تتناول شيئًا منذ الصّباح، لم يتناول أيٌّ منّا أيّ شيء لأنّنا جميعًا كنّا صائمين."

قال السيّد ميريديث: صائمين!" وقال الطّبيب: "صائمين؟"

قالت فيث: "أجل.. لمعاقبة أنفسنا على غناء "وولي بولي" في المقبرة."

قال السيّد ميريديث مهمومًا: "لا أريدكم أن تعاقبوا أنفسكم على ذلك يا ابنتي لقد أنّبتكم وكنتم جميعكم آسفين وقد سامحتكم."

وضّحت فيث قائلة: "هذا صحيح ولكن كان علينا أن نتلقّى العقاب. تلك هي قاعدتنا في نادي السّلوك الحسن والتي تفيد أن نُعاقب أنفسنا

متى ما اقترفنا خطأً أو أقدمنا على فعلٍ من شأنه أن يلحق الأذيّة بوالدنا في رعيّته. نحن نقوم بتربية أنفسنا لأنّنا لا نملك من يتولّى هذه المهمّة."

تأوّه السيّد ميريديث ولكنّ الطّبيب نهض من جانب أونا وقد تنفّس الصّعداء.

وقال: "إذًا فقد غابت هذه الطّفلة عن الوعي لأنّها كانت جائعةً وحسب وكلّ ما تحتاجه هو طبقٌ من الطّعام ليس إلّا. هلّا حرصت على أن تحصل عليه يا سيّد "كلو"، لطفًا منك. ومن قصّة فيث فأنا أظنّ أنّه من الأفضل أن يأكل جميعهم شيئًا ما فنحن لا نريد المزيد من حالات فقدان الوعي."

قالت فيث: "أعتقد أنّه لم يكن ينبغي لنا أن نجبر أونا على الصّيام. حين أفكّر في الأمر مليًّا ما كان يجب أن يتلقّى العقاب سوى جيري وأنا لأنّنا نحن من اقترحنا فكرة الحفل الموسيقيّ كما أنّنا الأكبر بين إخوتنا."

قالت أونا بصوتها الضّعيف: "ولكنّني غنّيت "وولي بولي" مثلكم تمامًا لذا فكان عليّ أن أُعاقب أيضًا."

عاد السيّد "كلو" بكأسٍ من الحليب وتسلّل جيري وفيث وكارل إلى حجرة المؤن، أمّا السيّد ميريديث فقد عاد إلى مكتبه حيث جلس في العتمة لوقتٍ طويلٍ برفقة أفكاره المريرة. إذًا فقد كان أطفاله يقومون بتربية أنفسهم لأنّه ليس هناك من يتولّى هذه المهمّة، يكافحون في حيرتهم دون يدٍ ترشدهم أو صوتٍ ينصحهم. اعتلجت جملة فيث التي نطقتها ببراءة في ذهن والدها وكأنّها رمحٌ شائك. لا وجود لمن ينتبه إليهم ويرعى أرواحهم ويهتمّ بأجسادهم الصّغيرة. كم بدت أونا ضعيفة وهي مستلقية على كنبة المجلس الكنسي وهي غائبة عن الوعي! كم بدت يداها الصّغيرتان هزيلتين وكم بدا وجهها الصّغير شاحبًا! كانت تبدو وكأنّها ستفلت من يديه في لحظة... صغيرته أونا اللّطيفة التي

أوصته بها "سيسيليا" متوسّلةً إليه كي يمنحها رعايةً خاصّة. لم يشعر بمثل هذا الضّنك الذي اختلجه حين لاج فوق ابنته الصّغيرة وهي غائبة عن الوعي منذ وفاة زوجته. ينبغي له أن يجد حلًّا ولكن ما العمل؟ هل عليه أن يعرض الزّواج على "إليزابيث كيرك"؟ فهي امرأةٌ طيبّة... وقد تكون لطيفةً مع أطفاله. قد يستطيع أن يحمل نفسه على الإقدام على ذلك لولا حبّه لـ "روزماري ويست" وإلى أن يقضي على ذلك الحبّ فلن يكون في وسعه أن يسعى للزّواج من امرأةٍ أخرى. ولكنّه لم يكن يستطيع أن يقضي عليه... لقد حاول من قبل ولم يفلح. كانت روزماري قد حضرت إلى الكنيسة ذلك المساء للمرّة الأولى منذ عودتها من "كينجسبورت" وبمجرّد أن أنهى خطابه، لمح وجهها من بين حشد الحاضرين في آخر الكنيسة فراح قلبه يخفق بشراسة ثمّ جلس حانيًا رأسه بينما كانت الجوقة تغنّي التّراتيل. لم يكن قد رآها منذ تلك اللّيلة التي عرض عليها الزّواج فيها وحين نهض مجدّدًا ليلقي التّرانيم، كانت يداه ترتعشان وعلا وجهه الشّاحب الاحمرار. وبعدها، طرد فقدان أونا لوعيها كلّ الأفكار من ذهنه لبعض الوقت، والآن سارعت كلّها للعودة إليه بينما هو جالسٌ في ظلام مكتبه ووحشته. كانت روزماري الامرأة الوحيدة في قلبه ولا جدوى من تفكيره في الزّواج من غيرها. لم يكن في وسعه القيام بفعلٍ دنيء كهذا ولا حتّى لأجل أطفاله. يجب عليه أن يتحمّل هذا العبء بمفرده... أن يحاول أن يكون والدًا أفضل وأكثر تيقّظًا... يجب عليه أن يخبر أطفاله ألّا يخشوا من الإفصاح له عن كلّ مشاكلهم. بعدها، أشعل مصباحه وأخذ كتابًا وزينًا يتمحور حول عالم الألوهيّة وكان ينوي قراءة فصلٍ واحدٍ ليستجمع أفكاره ولكنّه بعد خمس دقائقٍ غاب عن العالم وعن مشاكل العالم.

***

29
أسطورةٌ عجيبة

في إحدى الأمسيات الأولى من شهر حزيران، كان وادي قوس المطر مكانًا مبهجًا وانبعث هذا الابتهاج في نفوس الأطفال أيضًا الذين كانوا جالسين في منفسح الغابة، حيث كانت الأجراس على الشّجرات العاشقة ترنّ و"السيّدة البيضاء" تهزّ جدائلها الخضراء وكانت الرّياح تضحك وتصفر بينهم وكأنّها الصّديق الجذل المخلص. كانت السّراخس الحديثة في التّجويف مفعمةً بالحيويّة. كانت شجرات الكرز الموزّعة في أرجاء الوادي بين شجرات التنّوب القاتمة مغشية باللّون الأبيض. كانت عصافير أبو الحنّاء تزقزق فوق شجرات القيقب في "إنجلسايد". وعلى بعدٍ منها، على منحدرات جلين كانت الأشجار في البساتين تتبرعم بتألّقٍ وغموضٍ وتختفي في الغسق. كان يومًا ربيعيًّا وعلى المخلوقات الحديثة أن تكون مسرورةً في أيّام الرّبيع. كان الجميع في وادي قوس المطر مسرورين إلى أن تجمّد الدّم في عروقهم بسبب قصّة شبح "هنري وارين" التي روتها لهم ماري فانس.

لم يكن جيم هناك بل كان يقضي أمسيّاته في العليّة في "إنجلسايد" يدرس لامتحان الدّخول. كان جيري يصطاد السّمك في النّهر ووالتر

يقرأ قصائد البحر للشّاعر "لونجفيلوز" للآخرين الذين كانوا منغمسين في جمال السّفن وألغازها. بعد ذلك، راحوا يتحدّثون عمّا يرغبون في فعله في المستقبل وإلى أين يرغبون في السّفر وعن البلدان البعيدة التي سوف يزورونها. كانت نان ودي تودّان الذّهاب إلى "أوروبا" وكان والتر يتوق لنهر النّيل النّائح عبر رماله المصريّة ولاستراق نظرةٍ إلى أبي الهول. وأفصحت فيث بشيءٍ من الأسى أنها تعتقد أنّ عليها أن تصبح مبشّرة، ذلك أنّ السيّدة "تايلر" العجوز أخبرتها أنّ عليها أن تصبح كذلك، وهكذا سيتسنّى لها على الأقلّ زيارة الصّين أوالهند، تلك الأماكن الشرقيّة الغامضة. أمّا أونا فلم تنطق ببنت شفة، وكانت تفكّر في أنّها تفضّل ملازمة الدّيار فالمكان هنا أجمل من أيّ مكانٍ آخر. إنّه أمرٌ مريعٌ أن يكون عليهم التّوزّع في شتّى أرجاء العالم حين يكبرون، ذلك أشعر أونا بالوحشة والحنين إلى الوطن غير أنّ الآخرين تابعوا أحلامهم باغتباطٍ إلى أن جاءت ماري فانس وطردت الأحلام والقصائد بضربةٍ واحدة.

هتفت قائلة: "يا للهول، لقد انقطعت أنفاسي. لقد هرعت نزولًا من تلك التلّة بسرعة البرق، لقد وقف شعر رأسي من الرّعب في منزل العجوز بايلي هناك في الأعلى."

سألت دي: "ما الذي أفزعك؟"

"لا أدري. كنت أتسكّع بين الزّهور البنفسجيّة في الحديقة القديمة محاولةً أن أرى إن كانت أيٌّ من زنابق الوادي قد تبرعمت أو ليس بعد. كان المكان مظلمًا كجبّ ضبّ هناك، وإذ بي أري شيئًا ما يخشخش ويتحرّك في الجانب الآخر من الحديقة. كان أبيض اللون، صدّقوني لم أتمهّل لثانيةٍ واحدة كي أتحرّى أمره، بل قفزت من فوق الحاجز بأسرع من السّرعة. كنت واثقةً من أنّه شبح هنري وارين."

سألت دي: "ومن كان هنري وارين؟"

سألت نان: "ولم قد يملك شبحًا؟"

"ألم تسمعوا بالقصّة أبدًا على الرّغم من أنّكم نشأتم في جلين؟ حسنًا، انتظروا للحظة إلى أن ألتقط أنفاسي تمامًا وسوف أخبركم."

ارتعد والتر من الحماس. كان يحبّ قصص الأشباح بغموضها وذروتها المثيرة والخوف الذي يبعث في نفسه شعورًا من اللّذة الرّهيبة والنّادرة. بات "لونجفيلوز" الآن في نظره تافهًا وسخيفًا، فرمى الكتاب جانبًا ومدّد نفسه لينصت بملء جوارحه، وتوسّم في وجه ماري بعينيه الكبيرتين البرّاقتين. تمنّت ماري لو أنّه لا ينظر إليها بتلك الطّريقة. كانت تشعر أنّ في وسعها أن تقصّ قصّة الشّبح بطريقةٍ أفضل إن لم يكن والتر ينظر إليها. كان بإمكانها أن تضيف القليل من البهارات وتبتكر بعض التّفاصيل الفنيّة لتعزّز الرّعب. في هذه الحالة، كان عليها أن تتقيّد بالحقيقة البحتة أو الحقيقة التي سمعتها.

بادرت قائلة: "حسنًا، أنت تعلم أنّ العجوز "توم بايلي" وزوجته كانا يعيشان في ذاك المنزل في الأعلى منذ ثلاثين سنة. يُقال أنّه كان رجلًا فاسدًا وأنّ زوجته لم تكن أفضل منه. لم يُرزقا بأيّ أطفال ولكنّ إحدى أخوات العجوز "توم" ماتت تاركةً صبيًّا صغيرًا وهو هنري وارين هذا، فقاما بتبنّيه. كان في سنّ الثّانية عشر تقريبًا حين جاء إليهم وكان صغير الحجم وحسّاسًا. ويُقال أنّ "توم" وزوجته قاما باستغلاله منذ البداية وقاما بضربه وتجويعه. قال النّاس أنّهم كانوا يريدونه أن يقضي حتفه كي يحصلا على المال القليل الذي كانت والدته قد تركته له. لم يقض "هنري" نحبه على الفور ولكنّه بدأ يعاني من نوبات صرع، كما يسمّونها، وكبر إلى أن أصبح في الثّامنة عشر من عمره. اعتاد عمّه على جلده في تلك الحديقة لأنّها كانت خلف المنزل ولا يمكن لأحدٍ أن يراه، ولكنّ النّاس كانوا يستطيعون سماعهم، ويقولون أنّهم كانوا يستطيعون سماع صوت "هنري" المسكين يتوسّل لعمّه كي لا يقتله.

ولكن لم يجرؤ أيّ أحدٍ على التّدخّل لأنّ العجوز "توم" كان منحطًّا لدرجة أنّه كان سينتقم منهم بالتّأكيد. فقد قام بحرق حظائر رجلٍ من رأس الميناء كان قد أساء إليه. في آخر المطاف، لقي "هنري" حتفه وقال عمّه وعمّته أنّه هلك، بسبب نوباته وهذا جلّ ما عرفه النّاس ولكنّ الجميع كانوا يقولون أنّ "توم" قتله لأجل المال على الأقلّ. ولم يمرّ وقتٌ طويل قبل أن يُذاع أنّ "هنري" عاد يمشي وأنّ تلك الحديقة مسكونة. كان صوت بكائه وأنينه يُسمع في اللّيالي. غادر العجوز "توم" وزوجته ولم يعودا أبدًا. شُوّهت سمعة المكان، فلم يشتريه أو يستأجره أيّ أحد ولهذا أصبح من الأنقاض. حدث ذلك منذ ثلاثين عامًا ولكنّ شبح "هنري وارين" ما زال يلازم هذا المكان."

سألت نان باستهزاء: "أتصدّقين هذه القصّة؟ أنا لا أصدّقها."

ردّت ماري: "حسنًا لقد رآه وسمعه أشخاصٌ طيّبون حقًّا، ويقال أنّه يظهر ويدبّ على الأرض ويمسك المرء من ساقيه ويثرثر ويئنّ كما كان يفعل حين كان حيًّا. وهذا أوّل ما فكّرت فيه بمجرّد أن رأيت ذاك الشّيء الأبيض في الأجمات، وفكّرت أنّه إذا أمسك بي وبدأ ينوح فسوف أموت في أرضي لذا لذت بالفرار. قد لا يكون شبحه ولكنّني ما كنت لأجازف."

ضحكت دي قائلة: "على الأغلب أنّه كان عجل السيّدة "ستيمسون" العجوز الأبيض فهو يرتعي في الحديقة وقد رأيته من قبل."

"قد تكونين محقّة ولكنّني لن أمرّ في حديقة بايلي بعد الآن. ها هو جيري مع خيطٍ من سمك السّلمون المرقّط وإنّه دوري لقليها. يقول جيم وجيري أنّني أفضل طبّاخةٍ في جلين وأخبرتني كورنيليا أنّه في إمكاني أن أجلب لكم حزمة الكعك هذه وكدت أوقعها حين رأيت شبح هنري."

تَعَب جيري حين سمع قصّة الشّبح التي كرّرتها ماري على مسامعه،

بينما كانت تقلي السّمك، وأضافت عليها بعض التّعديلات التّافهة، بما أنّ والتر كان منهمكًا في مساعدة فيث في تحضير المائدة. لم تؤثّر القصّة في جيري غير أنّ فيث وأونا وكارل كانوا مذعورين في سرّهم على الرّغم من أنّهم ما كانوا ليصدّقوا القصّة أبدًا. كانت الأمور بخير طالما كان الجميع متواجدًا برفقتهم في الوادي. ولكن، حين انتهت المأدبة واستتار النّور راحوا يرتعشون إثر تذكّرهم. كان جيري قد ذهب إلى إنجلسايد مع أطفال بلايث لاستشارة جيم في أمرٍ ما وكانت ماري قد عادت إلى المنزل من ذلك الدّرب لذا تعيّن على فيث وأونا وكارل أن يعودا إلى الدّير بمفردهم، فساروا قريبين جدًّا من بعضهم البعض وتوقّفوا لوقتٍ طويلٍ أمام حديقة العجوز بايل. لم يصدّقوا أنّها مسكونة بالطّبع ولكنّهم كانوا يأبون الاقتراب منها إطلاقًا.

***

30
شبح الحاجز

لم يتمكّن أيٌّ من فيث أو كارل أو أونا من التّخلّص من القبضة التي أحكمتها قصّة شبح "هنري وارين" على مخيّلاتهم. لم يؤمنوا في الأشباح في حياتهم وقد سبق أن سمعوا بالكثير من قصص الأشباح، إذ سبق أن روت لهم ماري فانس قصصًا تتجمّد لها العروق أكثر من هذه، ولكنّ كلّ تلك القصص كانت عن أماكن بعيدةٍ وأناسٍ مجهولين. وكانوا ينسون أمرها بعد تلاشي رعشة الرّهبة والذّعر الأولى، والتي كانت مريعة وممتعة في آن واحد. أمّا هذه القصّة فقد لحقتهم إلى المنزل، كانت حديقة "بايلي" العجوز تقريبًا أمام عتبة منزلهم، تقريبًا في وادي قوس المطر المحبّب. وكانوا قد عبروها مرارًا وتكرارًا، كانوا قد نقّبوا عن الأزهار فيها وتّخذوها طريقًا قادوميّة ولكن ليس بعد اليوم أبدًا! فبعد تلك اللّيلة التي قصّت فيها ماري فانس عليهم تلك الأسطورة الشّنيعة أقلعوا عن المرور عبرها أو بقربها ولو على جثّتهم! أوكان الموت يقارن بالاحتمال الخيّالي لوقوعهم في قبضة شبح "هنري وارين" الزّاحف؟

في إحدى أمسيات حزيران الدّافئة، كان ثلاثتهم جالسين تحت

"الشّجرتين العاشقتين" وكانوا يشعرون بشيءٍ من الوحدة. لم يأت أيّ أحد آخر إلى الوادي في ذلك المساء. كان جيم بلايث في شارلوت تاون يقدّم امتحان الدّخول. وجيري ووالتر قد ذهبا في رحلةٍ بحريّة مع كابتن "كروفورد" العجوز، أمّا نان ودي وريلا فكنّ قد نزلن إلى الميناء لزيارة "كينيث" و"بيرسيس فورد" اللذين كانا قد جاءا في زيارةٍ قصيرةٍ لمنزل الأحلام القديم. كانت نان قد طلبت من فيث مرافقتهنّ ولكنّ فيث أبت. كانت تشعر ببعض الغيرة من "بيرسيس فورد" ذلك أنّها سمعت عن جمالها الأخّاذ وفتنتها الشّيء الكثير، وبيد أنّها ما كانت لتعترف بذلك مطلقًا. لا، لم تكن ستنزل إلى هناك وتمارس دورًا ثانويًا لأيّ أحد. فقامت هي وأونا بجلب كتبهم القصصيّة إلى وادي قوس المطر وراحتا تقرآن في حين كان كارل يستكشف الحشرات على ضفاف الجدول، وكان الثلاثة مسرورين إلى أن لاحظوا أن الظّلام بدأ يخيّم وأن حديقة العجوز بايلي كانت قريبةً بشكلٍ غير مريح. عاد كارل وجلس قرب الفتاتين وتمنّوا جميعهم لو أنّهم عادوا إلى المنزل في وقتٍ أبكر ولكن لم يقل أحدهم شيئًا.

تراكمت غيومٌ أرجوانية كبيرة ومخمليّة في الغرب وانتشرت فوق الوادي. لم يكن هناك رياح وفجأةً بات كلّ شيءٍ ساكنًا بشكلٍ غريبٍ ومريع. كان المستنقع يعجّ بحشرات اليعسوب وممّا لا شكّ فيه أنّ أحد اجتماعات مجلس الجنيّات كان منعقدًا تلك اللّيلة. لم يكن وادي قوس المطر مكانًا مريحًا في تلك اللّحظة.

نظرت فيث إلى حديقة "بايلي" العجوز، وإن كان من الممكن أن يتجمّد دم أيّ شخص، فقد تجمّد دم فيث في تلك اللّحظة. طاردت عيون كارل وأونا نظرات فيث المدوّخة وبدأت القشعريرة تسير في بدنيهما، لأنّ هناك تحت شجرة الطّمراق الباسقة على حاجز حديقة "بايلي" المنهار الذي نمت عليه الحشائش، كان هناك شيءٌ أبيض بدا

غامض الشّكل في غياهب الظّلمات.

في آخر المطاف، همست أونا: "إنّه... إنّه... العجل."

همست فيث: "لكنّه... أكبر... من أن... يكون عجلًا."

كان فمها وشفتاها جافّة لدرجة أنّها كانت بالكاد قادرة على النّطق.

فجأةً شهق كارل وقال: "إنّه قادمٌ إلى هنا."

ألقت الفتاتان نظرةً خاطفةً كظيمةً أخيرة. أجل، كان يزحف من فوق الحاجز كما لا يستطيع أيّ عجلٍ أن يزحف. وللحظة، كان الثلاثة مقتنعون بأنّ ما رأوه كان شبح "هنري وارين". فرّ كارل هاربًا بتهوّر فلحقت به الفتاتان بعد أن أطلقتا صيحةً واحدة. نزلوا التلّة كالمخلوقات المجنونة عبورًا في الشّارع ووصولًا إلى الدّير. كانوا قد تركوا الخالة مارثا وهي تخيط في المطبخ وحين عادوا لم يجدوها هناك. فسارعوا إلى المكتب، كان مظلمًا وشاغرًا. فعادوا أدراجهم دفعةً واحدة وتوجّهوا إلى إنجلسايد، ولكنّهم لم يعبروا وادي قوس المطر. نزلوا التلّة وعبروا شارع جلين بسرعة الطّير تحملهم أجنحة رعبهم. كان كارل في الطّليعة تتبعه فيث وأخيرًا أونا. لم يحاول أيّ أحدٍ أن يوقفهم بيد أنّ جميع من رآهم تساءل ما هي العفرتة الجديدة التي كان ينوي عليها صغار الدّير هؤلاء هذه المرّة. ولكنّهم التقوا بروزماري ويست عند بوّابة إنجلسايد وقد كانت عائدةً لتوّها لإعادة بعض الكتب التي كانت قد استعارتها.

رأت وجوههم المرتاعة وعينيهم الجاحظة فأدركت أنّ أرواحهم الصّغيرة قد اختطفها رعبٌ رهيب مهما كان سببه. احتضنت كارل بذراعٍ وفيث بذراعٍ أخرى أمّا أونا فقد انكبت عليها وعانقتها باستماتة.

قالت: "ما الذي حدث يا صغاري الأحبّاء؟ ما الذي أخافكم هكذا؟"

أجاب كارل من بين ثرثرة أسنانه قائلًا: "إنّه شبح "هنري وارين"

قالت روزماري بانشداه: "شبح... هنري...وارين!"

أجهشت فيث بالبكاء وقالت: "أجل، إنّه هناك... على حاجز "بايلي"... لقد رأيناه... وراح يطاردنا."

قادت روزماري الأطفال الولهانين الثّلاثة إلى شرفة إنجلسايد. لم يكن جيلبرت أو آن هناك بل كانا قد ذهبا لزيارة منزل الأحلام أيضًا، غير أنّ سوزان ظهرت عند العتبة، كالحةً وواقعيّة ولا تشبه الأشباح أبدًا.

وسألت: "ما سبب كلّ تلك الضّوضاء؟"

روى الأطفال أسطورتهم المروّعة مجدّدًا بينما كانت روزماري تضمّهم إليها وتواسيهم بدون كلمات.

قالت سوزان دون انفعال: "لا بدّ من أنّه كان بومًا."

بوم! ولم يعط أطفال ميريديث رأيهم عن ذكاء سوزان منذ ذلك اليوم!

قال كارل منتحبًا وآه كم شعر بالعار من هذا النّحيب بعد أيّام: "بل كان أكبر من مليون بوم كما... كما أنّه كان يدبّ تمامًا كما قالت ماري وكان يزحف من فوق الحاجز ليصل إلينا. هل البوم يزحف في رأيك؟"

نظرت روزماري إلى سوزان.

وقالت: "لا بدّ من أنّهم رأوا ما أرعبهم هكذا."

قالت سوزان ببرودة أعصاب: "سأذهب وأتفقّد الأمر. هدّئوا من روعكم يا أطفال مهما كان ما رأيتم، فهو لم يكن شبحًا. أمّا بالنّسبة للمسكين "هنري وارين" فأنا متأكّدةٌ من أنّه سيسرّ فقط بالرّقود في قبره بسكون وارتياح حين يصل إلى هناك. لا خوف من عودته فلتثقوا بقولي. إن كان في وسعك ذلك، فلتعيديهم إلى رشدهم يا آنسة ويست بينما أتحرّى حقيقة الأمر."

توجّهت سوزان إلى وادي قوس المطر وبجرأةٍ، التقفت في طريقها

مذراةً وجدتها خلف الحاجز حيث كان الطّبيب يعمل في حقل الدّريس خاصّته. قد لا تنفع المذراة ضدّ الأشباح ولكنّها كانت سلاحًا مواسيًا. لم تر سوزان شيئًا حين وصلت إلى وادي قوس المطر. لم يتراءى لها أيّ زوّارٍ بيضٍ يتربّصون في حديقة العجوز "بايلي" المظلّلة. مشت سوزان بجسارةٍ في الحديقة وخارجها وطرقت بمذراتها على باب الكوخ في الجهة الأخرى حيث تسكن السيّدة "ستيمسون" مع ابنتيها.

في إنجلسايد، كانت روزماري قد نجحت في تهدئة الأطفال. كانوا ما يزالون يشهقون قليلًا بسبب الصدمة ولكن بدأ ينتابهم شكٌّ مترصّدٌ بأنّهم قد أهانوا أنفسهم وأضحى الشّكّ حقيقةً مع عودة سوزان.

فجلست على كرسيٍّ هزّازٍ وقالت بابتسامةٍ مقيتة: "لقد اكتشفت ما كان شبحكم. كان لدى السيّدة "ستيمسون" العجوز زوجًا من الشّراشف القطنيّة تبيّضها في حديقة "بايلي" منذ أسبوع. وقامت بنشرها على الحاجز تحت شجرة الطّمراق لأنّ العشب كان قصيرًا ونظيفًا هناك، وقد خرجت هذا المساء لتدخلها إلى الدّاخل، فقامت بوضعها على كتفيها كي تتمكّن من حملها، ذلك أنّها كانت تمسك بعدّة حياكتها بيديها. ولا بدّ من أنّها قد أوقعت إحدى سنّاراتها ولم تتمكّن من إيجادها حتّى الآن، لذا جثت على ركبتيها وزحفت باحثةً عنها وهذا ما كانت تفعله حين سمعت صراخًا مرعبًا أسفل الوادي ولمحت ثلاثة أطفالٍ ينزلون من التلّة فظنّت أنّ شيئًا ما عضّهم، فراح قلبها الضّعيف يخفق لدرجة أنّها عجزت عن الكلام أو الحراك، فقرفصت هناك إلى أن اختفوا. ثمّ عادت إلى المنزل وهي تتلقّى أدويةً محفّزة منذ تلك اللّحظة كما أنّ قلبها في حالٍ يرثى لها وقالت أنّها لن تتخطّى هذا الرّعب طيلة الصّيف."

جلس أطفال ميريديث وقد اعتراهم عارٌ لم يفلح حتّى تعاطف روزماري في طرده. عادوا إلى الدّير والتقوا بـجيري عند البوّابة

واعترفوا له بما حصل فعُقد اجتماعٌ لنادي السّلوك الحسن في الصّباح التّالي.

في السّرير، همست فيث لأونا: "ألم تكن الآنسة ويست لطيفةً معنا هذه اللّيلة؟"

اعترفت أونا: "بلى، من المؤسف أنّ النّساء يتغيّرن كثيرًا حين يصبحن زوجات أب."

قالت فيث بولاء: "أنا لا أصدّق ذلك."

***

31
كارل يكّفر عن ذنبه

قالت فيث عابسة: "لا أفهم لم علينا أن نُعاقب فنحن لم نقترف أيّ ذنب. لم يكن في وسعنا أن نقاوم خوفنا ولن يلحق ذلك الأذى بوالدنا فقد كان مجرّد حادثٍ ليس إلّا."

قال جيري مستهزئًا كأنّه قاضٍ: "كنتم جبناء واستسلمتم لجبنكم، ولذا يجب أن تُعاقبوا. سوف يضحك الجميع عليكم بسبب ما حدث وهذا سيجلب العار للعائلة."

قالت فيث مرتعدة: "لو أنّك عرفت كم كان ذلك الشّيء مروّعًا، فستعتقد أنّنا تلقّينا عقابًا كافيًا بالفعل. لن أمرّ بهذا الشّعور مجدّدًا مقابل أيّ شيءٍ في هذا العالم بأسره."

تمتم كارل قائلًا: "أنا واثقٌ من أنّك كنت ستهرب أيضًا لو كنت هناك."

قال جيري ساخرًا: "أهرب من عجوزٍ مع شرشفٍ قطنيّ؟ ها ها ها!"

صاحت فيث: "لم تكن تبدو كعجوزٍ البتّة بل كشيءٍ ضخمٍ أبيض ومريعٍ يزحف فوق العشب تمامًا كما كان يفعل "هنري وارين" حسبما

قالت ماري. لك أن تضحك يا جيري ميريديث ولكنّني واثقةٌ من أنّك كنت لتبكي لو كنت هناك. وكيف سنعاقب؟ أنا لا أرى أنّ ذلك منصفًا ولكن فلتُرنا ما لديك أيّها القاضي ميريديث!"

قال جيري مقطّب الجبين: "أنا أرى أنّ اللّوم يقع على كارل أكثر من غيره لأنّه انطلق أوّلًا حسبما فهمت. ثمّ إنّه صبيّ لذا فكان عليه أن يدافع عنكما أنتما الفتاتين مهما كان الخطر المحدّق بكم. أنت تعلم ذلك، صحيحٌ يا كارل؟"

تذمّر كارل بخجل: "أظنّ ذلك."

"جيّدٌ جدًّا. سيكون هذا عقابك. سوف تجلس على شاهد قبر "هيزيكيا بولوك" في المقبرة وحدك حتى السّاعة الثّانية عشر."

هزّ كارل بكتفيه. لم تكن المقبرة بعيدةً عن حديقة العجوز "بايلي". سوف يكون هذا العقاب محنة عصيبة ولكنّ كارل كان يتوق لمحو عاره وإثبات أنّه لم يكن ندلًا.

فقال بعزم: "حسنًا، ولكن كيف لي أن أعرف أنّها السّاعة الثّانية عشر؟"

"إنّ نوافذ المكتب مفتوحة وستتمكّن من سماع صوت السّاعة، واعلم أنّه لا يُسمح لك بالتحرّك من مكانك حتّى انقضاء الوقت. أمّا بالنّسبة لكما، فسيكون عليكما أن تتخلّيا عن تناول المربّى على العشاء لمدّة أسبوع."

بدت فيث وأونا مذهولتين فقد رأين أنّ التياع كارل، والذي كان قصير المدّة مقارنةً بعقابهما، كان أخفّ وطأةً من هذا العذاب الطّويل. كان عليهما أن تتحمّلا أسبوعًا كاملًا من الخبز الرّطب دون مساعدةٍ من لذّة المربّى! ولكنّ الاعتراض كان ممنوعًا في النّادي لذا تقبّلت الفتاتان نصيبهما بكلّ الفلسفة التي تمكّنوا من استجماعها.

في تلك اللّيلة، خلد الأطفال إلى النّوم عند السّاعة التّاسعة باستثناء

كارل الذي كان جالسًا على شاهدة القبر بالفعل. أقبلت أونا إليه لتتمنّى له ليلةً سعيدة وقد اعتصر قلبها العطوف من الشّفقة.

فهمست: "آه أتشعر بالخوف يا كارل؟"

أجاب كارل بعبث: "لا إطلاقًا."

قالت أونا: "لن يغمض لي جفنٌ قبل منتصف اللّيل، إن أحسست بالوحشة فلتنظر من النّافذة ولتتذكّر أنّني في الدّاخل مستيقظة وأفكّر فيك. سوف يؤنسك ذلك بعض الشّيء، ألا تظنّ؟"

قال كارل: "سأكون بخير. لا تقلقي عليّ."

وعلى الرّغم من كلماته الجسورة غير أنّ كارل أضحى فتًى وحيدًا حين أطفئت الأنوار في الدّير. تمنّى لو كان والده في مكتبه كعادته، ما كان ليشعر بالوحدة عندها. غير أنّ السيّد ميريديث قد جرى استدعاؤه تلك اللّيلة إلى قرية الصّيد عند مدخل الميناء، لمقابلة رجلٍ يحتضر وعلى الأرجح أنّه لن يعود قبل منتصف اللّيل. سيتوجّب على كارل أن يكابد غربته بمفرده.

مرّ رجلٌ من جلين يحمل فانوسًا فراحت الظّلال التي يسبّبها نور الفانوس تندفع بجنونٍ تتراقص كالشّياطين والسّحرة، ثمّ مرّت وخيّم الظّلام ثانيةً. بدأت الأنوار في جلين تنطفئ واحدًا تلو الآخر. كانت اللّيلة مظلمة وكانت السّماء غائمة وكانت الرّياح الشّرقيّة عاتيةً على الرّغم من الموسم. بعيدًا عند الأفق، كانت الأضواء الخافتة منبعثة من "شارلوت تاون". ناحت الرّياح وتنهّدت في أشجار التنّوب. وكان نصب السيّد "آلك دايفس" التّذكاريّ يتوهّج في العتمة، وإلى جانبه كانت شجرة الصّفصاف تتلوّى وتطلق أذرعها الطّويلة فيبدو النّصب التّذكاريّ وكأنّه يتحرّك من تارّةٍ لأخرى.

التفّ كارل على نفسه فوق شاهد القبر، ودسّ ساقيه تحت نفسه ذلك أنّ تدلّيهما من حافّة الصّخرة لم يكن مريحًا. تخيّل فقط... تخيّل

فقط لو تخرج يدين عظميّتين من قبر السيّد "بولوك" وتمسك بكاحليه. كانت تلك إحدى توقّعات ماري فانس حين كانوا جميعًا مجتمعين هناك ذات يوم، وقد عادت لتنوب إليه الآن. لم يكن يصدّق تلك الأشياء، حتّى أنّه لم يكن مؤمنًا حقًّا بشبح "هنري وارين" أمّا السيّد "بولوك" فقد رحل منذ ستّين عامًا لذا فعلى الأرجح أنّه لم يكن يكترث لمن يجلس على شاهدة قبره الآن. ولكن هناك ما يبعث الغرابة والذّعر في بقاء المرء مستيقظًا حين يكون الجميع نائمين، إذ يكون وحيدًا مع شخصيّته الواهنة لمحاربة أمارات الظّلام وقواه القاهرة. لم يكن كارل قد تجاوز العاشرة من عمره وكان الآن محاطًا بالموتى وكان يتمنّى... آه كم كان يتمنّى لو تدقّ السّاعة الثّانية عشر. ألن تدقّ السّاعة الثّانية عشر أبدًا؟ لا بدّ من أنّ الخالة مارثا قد نسيت أن تضبطها.

وعندها دقّت السّاعة الحادية عشر... الحادية عشر وحسب! ما زال عليه أن يلازم ذلك المكان الكئيب لساعةٍ إضافيّة. يا ليت كان هنالك بعض النّجوم المؤنسة لرؤيتها! كان هنالك أصوات وقع أقدامٍ مارّة في كلّ أرجاء المقبرة. ارتعش كارل بسبب الخوف والبرد.

وبعد ذلك، أمطرت السّماء رذاذًا باردًا وابتلّ قميصه فشعر بالبرد حتّى النّخاع، فنسي الرّعب النّفسيّ إثر تضايقه الجسديّ. ولكن، كان عليه أن يبقى هناك حتّى السّاعة الثّانية عشرة، كان يُعاقب نفسه ولم يكن قد قيل أيّ شيء عن هطول المطر. حين دقّت السّاعة الثّانية عشرة انزلق جسدٌ عن شاهد قبر السيّد "بولوك" ودخل إلى الدّير وصعد السّلالم ليخلد إلى النّوم. كانت أسنان كارل تصطكّ وكان يظنّ أنّه لن يعرف طعم الدّفء ثانيةً.

في الصّباح، كان كارل دافئًا بما يكفي. نظر جيري إلى وجهه المحمرّ نظرةً مندهشةً واحدة ثمّ هرع لمناداة والده. أقبل السيّد ميريديث على عجلة وكان وجهه باهتًا وشاحبًا، أبيض كالعاج بسبب سهره قرب

فراش رجلٍ ميت ولم تتسنّ له العودة إلى منزله قبل بزوغ الفجر، انحنى فوق ابنه الصّغير بقلق.

وسأله: "هل أنت مريضٌ يا كارل؟"

قال كارل: "شاهد... القبر... ذلك...إنّه يتحرّك... إنّه... قادمٌ نحوي... أبعدوه... من فضلكم."

هرع السيّد ميريديث إلى الهاتف وبعد عشر دقائق كان الطّبيب ماثلًا أمام الدّير. وبعد نصف ساعة، أُرسلت برقيةٌ إلى البلدة لاستدعاء ممرّضٍ متمرّس وعلم جميع أهالي جلين أنّ كارل ميريديث يعاني من التهاب الرّئة وأنّ الطّبيب بلايث هزّ برأسه.

هزّ جيلبرت برأسه أكثر من مرّةٍ خلال الأسبوعين اللّاحقين. لقد تطوّر مرض كارل وأصبح يعاني من التهاب الرّئة المزدوج. ثمّة ليلةٌ قضتها فيث وأونا بالبكاء في غرفة نومهما وأبى فيها جيري، وقد اجتاحه النّدم، أن يتحرّك عن الأرض من أمام باب غرفة كارل. لم يترك الطّبيب بلايث أو الممرّض غرفة كارل أبدًا بل جابها الموت ببسالةٍ حتّى الفجر الدّامي إلى أن انتصروا في المعركة. تماثل كارل للشّفاء ونجا من هذه الأزمة سليمًا معافى. أُذيعت الأخبار لأهالي جلين الذين كانوا ينتظرونها واكتشف النّاس كم يحبّون كاهنهم وأطفاله.

أخبرت الآنسة كورنيليا آن: "أنا لم أنم ليلةً واحدة منذ أن علمت أن الطّفل كان سقيمًا، ولم تنفكّ ماري عن البكاء إلى أن أحدثت عيناها الغامضتان ثقوبًا في البطّانيّة. أصحيحٌ أنّ كارل أُصيب بالتهاب الرّئة لأنّه بقي في المقبرة في تلك اللّيلة الماطرة لأجل تحدٍّ؟"

"لا بل بقي هناك لمعاقبة نفسه على جبنه أثناء حادثة شبح "وارين" تلك. يبدو أنّهم أنشأوا ناديًا لتنشئة أنفسهم ويقومون بمعاقبة أنفسهم عند اقتراف الأخطاء. قام جيري بإخبار السيّد ميريديث كلّ شيءٍ بخصوص هذا الأمر."

قالت الآنسة كورنيليا: "يا للصّغار المساكين."

تحسّنت حال كارل بسرعة، إذ أنّ الرعيّة لم يقصّروا في إحضار الطّعام المغذّي إلى الدّير. وكان نورمان دوجلاس يأتي كلّ مساءٍ بدزّينةٍ من البيض الطّازج وجرّةٍ من قشدة "جيرسي". وكان يبقى في بعض الأحيان للتّجادل مع السيّد ميريديث.

وحين أصبح كارل قادرًا على النّزول إلى وادي قوس المطر مجدّدًا، أقام الأطفال مأدبةً على شرفه وحضر الطّبيب وساعدهم في الألعاب النّارية. كانت ماري فانس هناك أيضًا ولكنّها لم ترو قصص الأشباح، ذلك أنّ الآنسة كورنيليا قد أنّبتها على ذلك تأنيبًا ما كانت لتنساه بتلك السّرعة.

***

32
شخصان عنيدان

في طريق عودتها من إنجلسايد حيث كانت تعطي الدّرس الموسيقيّ، انصرفت روزماري ويست إلى الينبوع المختبئ في وادي قوس المطر. لم تكن قد زارت ذلك الينبوع طيلة فصل الصّيف، لم تعد تلك البقعة تجذبها أبدًا. لم يعد طيف حبيبها الشّابّ يحضر الملتقى السّريّ الآن أمّا الذّكريات المرتبطة بجون ميريديث فقد كانت أليمةً وشجيّة.

ولكنّها كانت قد رنت بالصّدفة إلى خلفها في الوادي وكانت قد لمحت "نورمان دوجلاس" يثب من فوق الحاجز الصّخريّ لحديقة "بايلي" وحسبت أنّه كان متوجّهًا إلى أعلى التلّة وإن مرّ بها فسيتعيّن عليها العودة إلى المنزل برفقته وهي لم تكن ترغب في ذلك لذا تسلّلت على الفور خلف شجرات القيقب المجاورة للينبوع على أمل أن يمرّ دون أن يراها.

ولكنّ نورمان كان قد رآها لا بل الحقيقة أنّه كان يبحث عنها، إذ كان يرغب في التّحدّث معها منذ فترة ولكنّها كانت دائمًا، كما كان يبدو، تتجنّبه. لم تكن روزماري قد استلطفت "نورمان دوجلاس" يومًا.

ولطالما تساءلت في الماضي كيف يمكن لإيلين أن تنجذب إليه. كان "نورمان دوجلاس" يعي مقت روزماري له وكان يرى في ذلك مضحكةً بالنّسبة إليه، لم يكن "نورمان" يبالي إن استلطفه الآخرون أم لا حتّى أنّ ذلك لم يحمله على بغضهم بالمقابل، لأنّه كان يعتبر الأمر نوعًا من المجاملة المرغمة. كان يظنّ أن روزماري فتاةٌ راقية وكان ينوي أن يكون زوج أختٍ فاضل ومعطاء ولكن قبل أن يصبح زوج أختها، كان يتوجّب عليه أن يتحدّث إليها لذا فقد غار في الوادي للّحاق بها بمجرّد أن رآها تغادر إنجلسايد حين كان واقفًا أمام باب متجر جلين.

كانت روزماري جالسةً على مقعد القيقب حيث كان "جون ميريديث" جالسًا تلك اللّيلة منذ سنةٍ تقريبًا مستغرقةً في تفكيرها. كان الينبوع الصّغير يتلألأ ويلمع تحت أهداب السّرخس. أرسل غروب الشّمس بريقه الأحمر الياقوتيّ من خلال الأغصان المقنطرة ونمت إلى جانبها أجمات من أزهار النّجمة المثاليّة. كانت تلك البقعة اللّطيفة خياليّة وفاتنة ومراوغة كأيّ ملاذٍ للجنيّات والحوريّات في الغابات القديمة. وصل "نورمان دوجلاس" إلى ذلك المكان ونثر فيه من نفسه فأباد سحره في لحظة. بدا وكأنّه يبتلع المكان بشخصيّته، فخلا من كلّ شيء باستثناء "نورمان دوجلاس" الذي وقف هناك، جسيم البدن، أحمر اللّحية، يعتليه الرّضا.

نهضت روزماري وقالت ببرود: "مساء الخير."

"مساء الخير يا فتاة. اجلسي مجدّدًا... اجلسي. أودّ أن أتحدّث إليك. بوركت يا فتاة، لم ترمقينني بهذه النّظرات؟ لا أريد أن أتناولك... لقد تناولت عشائي. اجلسي وكوني متحضّرة."

قالت روزماري: "يمكنني أن أسمع ما تريد قوله من مكاني هنا."

"في وسعك سماعي إن صرّيت أذنيك يا فتاة، أردتك أن تكوني مرتاحةً وحسب، فأنت تبدين متضايقةً بوقوفك هناك. حسنًا سوف

أجلس على أيّة حال."

وبناءً على ذلك، جلس "نورمان" في المكان نفسه الذي كان "جون ميريديث" قد جلس فيه ذات مرّةٍ من قبل. كان التّناقض مثيرًا للسّخرية لدرجة أنّ روزماري كانت تخشى أن تنفجر في نوبةٍ من الضّحك الهستيريّ. ألقى "نورمان" قبّعته جانبًا ووضع يديه الضّخمتين الحمراوين على ركبتيه ونظر إليها وقد شعّ وميضٌ في عينيه.

وقال متزلّفًا إليها، وقد كان في وسعه أن يتملّق حين يحلو له ذلك: "تعالي يا فتاة، لا تكوني عنيدةً هكذا. دعينا نتحدّث بعقلانيّةٍ ومودّةٍ، هناك ما أودّ أن أطلبه منك لأنّ إيلين قالت أنّها لن تفعل لذا فالأمر يقع على عاتقي."

نظرت روزماري إلى الينبوع الذي بدا منكمشًا بحجم قطرة النّدى. حدّق "نورمان" فيها بيأس.

انفجر قائلًا: "سحقًا، هلّا ساعدت زميلًا قليلًا؟"

سألت روزماري بازدراء: "وما الذي تريدني أن أساعدك فيه؟"

"أنت تعلمين تمامًا ما أريده يا فتاة. لا عجب في أنّ إيلين كانت تخشى أن تطلب منك بنفسها. اسمعي يا فتاة، أنا أرغب في الزّواج من إيلين. أنت تفهمين ما أقوله، صحيح؟ قالت إيلين أنّها لن تستطيع الموافقة قبل أن تعفيها من وعدٍ أحمق كانت قد أعطته لك. هيّا يا فتاة هلّا فعلت؟ هلّا فعلت؟"

قالت روزماري: "حسنًا."

نهض "نورمان" وأمسك بيدها المقاومة.

"هذا جيّد. كنت أعلم أنّك ستوافقين... لقد أخبرت إيلين أنّك ستوافقين. كنت أعلم أنّ الأمر لن يستغرق سوى دقيقةٍ واحدة. والآن يا فتاة فلتعودي إلى المنزل ولتخبري إيلين وسوف نقيم الزّفاف في غضون أسبوعين وسوف تأتين للعيش معنا فنحن لن نتركك في أعلى

تلك التّلّة كالغراب اليتيم لا تقلقي. أنا أعلم أنّك تبغضينني ولكن يا إلهي، كم سأستمتع بالعيش مع شخصٍ يكرهني، سوف يحلو طعم الحياة حينها. سوف تشويني إيلين وسوف تجمّدينني أنت. لن أشعر بالكلل للحظة."

لم تتنازل روزماري لإخباره أنّ عيشها معه تحت سقفٍ واحدٍ كان من سابع المستحيلات، بل تركته يتمشّى عائدًا إلى جلين وهو ينضح بالرّضا والحبور وسارت ببطءٍ إلى منزل التلّة. كانت تعلم مسبقًا أنّ هذه اللّحظة قادمة منذ عودتها من "كينجسبورت" ووجدت أنّ "نورمان دوجلاس" بات سميرًا مأنوسًا. لم يُذكر اسمه بتاتًا في أحاديثها مع إيلين غير أنّ اتّقاء الاسم بحدّ ذاته كان له مغزى. لم يكن من طبع روزماري أن يشحن صدرها بالغلّ وإلّا فإنّها كانت لتشعر ببالغٍ من الحقد.

كانت متحضّرةً بالكاد مع "نورمان" ولم تختلف معاملتها مع إيلين بأيّ شكلٍ من الأشكال ولكنّ إيلين لم تجد الرّاحة في خطوبتها الثّانية.

حين عادت روزماري إلى المنزل، كانت إيلين في الحديقة برفقة القدّيس "جورج". التقت الأختان في ممرّ أزهار الدّهلية وجلس القدّيس "جورج" على ممشى الحصى بينهما ثانيًا ذيله الأسود اللّامع حول كفّيه الأبيضين بظرافة وكان لامباليًا كأيّ قطٍّ شبعٍ ومؤدّبٍ ومشذّب.

سألت إيلين بفخر: "أسبق لك أن رأيت مثل أزهار الدّهلية هذه من قبل؟ إنّها ببساطةٍ أجود الأزهار التي امتلكناها في حياتنا."

لم تهتمّ روزماري بأزهار الدّهلية في حياتها وكان وجودها في الحديقة إذعانًا لذوق إيلين ليس إلّا. لاحظت زهرةً ضخمة مبرقعة بالأصفر والقرمزيّ كانت تسيطر على الزّهور الأخرى.

فأشارت إليها قائلةً: "إنّ زهرة الدّاهلية تلك تشبه "نورمان

دوجلاس" تمامًا وقد تكون شقيقته التّوأم بسهولة."

احمرّ وجه إيلين ذو الحاجبين السّوداوين. كانت معجبةً بتلك الزّهرة ولكنّها كانت تعلم أنّ روزماري لم تكن كذلك، وأنّها لم تكن تنوي المجاملة ولكنّها لم تمتعض من كلام روزماري... لم تجرؤ المسكينة إيلين على الامتعاض من أيّ شيءٍ في تلك اللّحظة. وكانت تلك المرّة الأولى التي تذكر فيها روزماري اسم "نورمان" لها فشعرت أنّ ذلك ينذر بشيءٍ ما.

قالت روزماري وهي تنظر إلى أختها مباشرةً: "لقد قابلت "نورمان دوجلاس في الوادي وأخبرني أنّك ترغبين في الزّواج منه إن أذنت لك."

سألتها إيلين محاولةً أن تتكلّم ببرود ولا مبالاة غير أنّها فشلت فشلًا ذريعًا:

"حقًّا؟ وما كان جوابك؟"

لم تتمكّن من النّظر في عينيّ روزماري، كانت تنظر إلى فرو القدّيس "جورج" الأسود الأملس وكانت تشعر بخوفٍ رهيب. كانت روزماري إمّا قد وافقت أو لم توافق. في حال موافقتها، كانت إيلين ستشعر بالعار والنّدم لدرجة أنّها ستكون عروسةً متضايقةً جدًّا، أمّا في حال عدم موافقتها... حسنًا، كانت إيلين قد تعلّمت كيف تعيش من دون "نورمان دوجلاس" من قبل ولكنّها نسيت ذلك الدّرس وكانت تشعر أنّها لن تقو على تعلّمه مجدّدًا.

قالت روزماري: "لقد قلت أنّ كلاكما تملكان الحريّة المطلقة، على حدّ علمي، للزّواج متى ما يحلو لكما."

قالت إيلين وكانت ما زالت تنظر إلى القدّيس جورج: "أشكرك."

لان وجه روزماري.

وقالت بلطف: "أتمنّى لك السّعادة يا إيلين."

نظرت إليها إيلين بتوسّل: "آه يا روزماري أنا أشعر بالعار... أنا لا أستحقّ ذلك بعد كلّ ما قلته لك..."

قالت روزماري بسرعةٍ وحزم: "دعينا لا نتحدّث في هذا الأمر."

أصرّت إيلين قائلة: "ولكن... ولكنّك حرّةٌ طليقةٌ الآن أيضًا ولم يفت الأوان بعد... جون ميريديث..."

كانت روزماري تخفي تحت كلّ لطفها شرارةً من الغضب وها قد كانت تتوقّد في عينيها الزّرقاوين في تلك اللّحظة فصاحت: "إيلين ويست! هل فقدت صوابك بكلّ معنى الكلمة؟ أتخالين للحظةٍ واحدة أنّني قد أذهب إلى جون ميريديث وأقول له بكلّ وداعة: "أرجوك يا سيّدي، لقد غيّرت رأيي أرجوك يا سيّدي آمل أنّك لم تغيّر رأيك." أهذا ما تريدين أن أفعله؟"

"لا... لا... ولكنّه قد يعود... ببعض التّشجيع..."

"محال. إنّه يكرهني وله كلّ الحقّ في ذلك. لا مزيد من هذا الهراء يا إيلين. أنا لا أكنّ لك الضّغينة... بإمكانك أن تتزوّجي من يحلو لك ولكن لا تتدخّلي في شؤوني."

قالت إيلين: "إذًا فعليك أن تأتي وتعيشي معي تحت سقفٍ واحد. أنا لن أتركك هنا بمفردك."

"أتظنّين حقًّا أنّني قد أعيش في منزل نورمان دوجلاس؟"

صاحت إيلين بشيءٍ من الغضب على الرّغم من امتهانها: "لم لا؟"

انفجرت روزماري ضاحكة.

"ظننت أنّك تتمتّعين بحسّ الفكاهة يا إيلين أتتوقّعين منّي فعل ذلك؟"

"أنا لا أرى ما المانع فمنزله فيّاحٌ بما يكفي وهو لن يتدخّل في شؤونك."

"لا مجال للتّفكير في هذا الأمر يا إيلين لا تتطرّقي لهذا الموضوع

مجدّدًا."

قالت إيلين ببرودٍ وعزم: "إذًا فلن أتزوّجه. أنا لن أتركك بمفردك هنا وهذا كلّ ما لديّ لقوله في هذا الشّأن."

"هذا هراء يا إيلين."

"ليس هراء بل هذا هو قراري الحاسم. من غير المعقول أن تعيشي بمفردك في هذا المنزل الذي يبعد أميالًا عن أيّ منزلٍ آخر. إن لن تقبلي بالمجيء معي فسأبقى معك. ولا مجادلة في هذا الآن لذا لا تحاولي."

قالت روزماري: "سوف أترك مسألة الجدال هذه لنورمان."

"سأتعامل مع نورمان بنفسي، في استطاعتي تدبّر أمره. ما كنت لأطلب منك أن تحرّريني من وعدي إطلاقًا... إطلاقًا... ولكن كان عليّ أن أخبر نورمان لم لا أستطيع أن أتزوّجه فقال أنّه سيسألك. لم أستطع أن أمنعه لا يجدر بك أن تظنّي أنّك الوحيدة في هذا العالم من تكنّ الاحترام لذاتها. أنا لم أحلم أبدًا في الزّواج وتركك هنا بمفردك وسترين أنّني أستطيع أن أكون عازمةً مثلك تمامًا."

استدارت روزماري ودخلت إلى المنزل وهزّت بكتفيها. نظرت إيلين إلى القدّيس "جورج" الذي لم يحرّك ساكنًا طيلة المحادثة.

"أيّها القدّيس جورج، أنا أعترف أنّ هذا العالم قد يكون مملًّا من دون الرّجال ولكنّني على وشك أن أتمنّى عدم وجودهم في هذا العالم. انظر إلى المشاكل والمتاعب التي سبّبوها هنا يا جورج... كيف اقتلعوا سعادة حياتنا من جذورها أيّها القدّيس. لقد بدأها "جون ميريديث" وختمها "نورمان دوجلاس"، والآن أصبح مصير كلاهما النّسيان. إنّ "نورمان" هو الرّجل الوحيد الذي قابلته والذي يوافقني أنّ الإمبراطور الألمانيّ هو أخطر المخلوقات على وجه الأرض... ولا يمكنني أن أتزوّج هذا الشّخص اللّبيب لأنّ أختي عنيدة وأنا أكثر عنادًا منها. سجّل كلماتي أيّها القدّيس "جورج"، إنّ "جون ميريديث" رهن إشارتها

وسيعود بحركةٍ من إصبعها. ولكنّها لا تريد يا "جورج"... ولن تحرّك ساكنًا أبدًا... وأنا لا أجرؤ على التّدخّل أيّها القدّيس. لن أعبس يا "جورج" فـروزماري لم تعبس لذا أنا عازمةٌ على عدم فعل ذلك أيضًا أيّها القدّيس. سوف يُجنّ جنون "نورمان" ولكنّ زبدة القول أيّها القدّيس "جورج" هي أنّ علينا نحن العجائز الحمقى أن نكفّ عن التّفكير في الزّواج وحسب. حسنًا، حسنًا "اليأس رجلٌ حرّ والأمل عبد" أيّها القدّيس. هيّا فلتدخل إلى المنزل الآن يا "جورج" وسأعزّيك بصحنٍ من القشدة وحينها قد يكون هناك مخلوقٌ سعيدٌ على الأقلّ فوق هذه التلّة."

***

33
لم يُضرب كارل

قالت ماري فانس بغموض: "هناك ما يجب أن أخبركم به."

كانت هي وفيث وأونا تتنزّهان متشابكات الأذرع في القرية بعد أن كنّ قد اجتمعن أمام متجر السيّد فلاج. تبادلت أونا وفيث نظراتٍ تقول "هذا لا يبشّر بالخير"، إذ قلّما ينمّ سماع أحاديث ماري عن الرّضا متى ما ظنّت أنّ عليها أن تخبرهم بشيءٍ ما. وغالبًا ما كانوا يتساءلون لم لا يزالون يحبّون ماري فانس، إذ كانوا يحبّونها على الرّغم من كلّ شيء. وبالطّبع، فقد كانت رفيقةً محبّبة وحماسيّة، يا ليتها لا تملك تلك القناعة بأنّ إخبارهم بالأمور يقع على عاتقها!

"أتعلمون أنّ روزماري ويست لم تتزوّج والدكم لأنّها تظنّ أنّكم مجموعةٌ من المشاكسين؟ هي تخشى ألّا تفلح في تنشئتكم بشكلٍ صحيح لذا رفضت عرضه."

ارتعش قلب أونا باغتباطٍ مضمر، كانت مسرورةً لسماعها أنّ الآنسة ويست لن تتزوّج والدها غير أنّ فيث شعرت بخيبة الأمل.

فسألت: "كيف لك أن تعلمي؟"

"آه هذا ما يتداوله الجميع. لقد سمعت السيّدة إيليوت تتحدّث في

الأمر مع زوجة الطبيب وكانتا تظنّان أنّني على بعد مسافةٍ لا تسمح لي بسماعهم ولكنّني أملك أذنين كأذنيّ قطّة. قالت السيّدة إيليوت أنّها لا تملك أدنى شكٍّ في أنّ روزماري كانت تخشى أن تحاول تنشئتكم بصفتها زوجة أبيكم بسبب ما يُذاع عنكم. وقد أقلع والدكم عن الذّهاب إلى التلّة الآن وكذلك "نورمان دوجلاس" ويقول النّاس أنّ إيلين هجرته لتتعادل معه لأنّه هجرها منذ أعوام ولكنّ "نورمان" يستمرّ بإعلان أنّه سيحصل عليها وأظنّ أنّ عليكم أن تعلموا أنّكم أفسدتم زواج والدكم وأعتقد أنّها خسارة لأنّه سينتهي الأمر به بالزّواج من امرأةٍ أخرى قريبًا وأنا أرى أنّ روزماري ويست كانت لتكون أفضل زوجةٍ له."

قالت أونا: "لقد أخبرتني أنّ زوجات الأب متوحّشاتٌ وخسيسات."

قالت ماري بشيءٍ من التّحيّر: "آه في الواقع إنهنّ في الغالب نكدات كما أعلم ولكنّ روزماري ويست لا يسعها أن تكون لئيمةً مع أيّ أحد. صدّقوني، إن تزوّج والدكم "إيميلين درو" فستتمنّون لو أنّكم تأدّبتم ولم تخيفوا روزماري من الأمر. إنّه لأمرٌ فظيعٌ أنه لن تتزوّج أيّ امرأةٍ خلوقةٌ من والدكم بسبب سمعتكم. أنا أعلم بالطّبع أنّ معظم ما يُشاع عنكم ليس صحيحًا ولكنّ السّمعة السيّئة تردي صاحبها وتترك بصماتها على سائر سنوات حياته. يقول بعض النّاس أنّ جيري وكارل هما من رميا الحجارة على شبّاك السيّدة "ستيمسون" ليلة أمس بينما الحقيقة أنّ الفاعلان كانا فتيان أسرة "بويد". ولكنّني أخشى أنّ كارل هو من وضع سمك الأنقليس في عربة السيّدة "كار" العجوز، على الرّغم من أنّني قلت في بادئ الأمر أنّني لن أصدّق قبل أن أحصل على إثباتٍ غير قول السيّدة "آلك" العجوز، هذا ما قلته في وجه السيّدة إيليوت."

صاحت فيث: "ماذا فعل كارل؟"

"حسنًا، يُقال... تذكّروا أنّني أخبركم ما يقوله النّاس... لذا لا داعي

للومي على هذا... أنّ كارل والعديد من الفتية الآخرين كانوا يصطادون سمك الأنقليس فوق الجسر ذات ليلةٍ الأسبوع الفائت، وكانت السيّدة "كار" مارّةً بعربتها المقعقعة العتيقة تلك، فنهض كارل وألقى سمكة أنقليسٍ كبيرة في خلفيّة العربة. وبينما كانت السيّدة "كارّ" العجوز المسكينة تقود عربتها إلى أعلى التلّة مرورًا بجانب إنجلسايد، راح الأنقليس يتلوّى بين قدميها فحسبته ثعبانًا وأطلقت صرخةً فظيعةً واحدة ووقفت وقفزت من العربة، وفرّ الحصان منطلقًا ولكنّه عاد إلى المنزل لذا لم ينجم أيّ ضرر. ولكنّ ساقيّ السيّدة "كارّ" أُصيبتا بشكلٍ مريع وباتت تعاني من التشنّجات العصبيّة متى ما فكّرت بالأنقليس. ألا تظنّون أنّه ما كان عليه أن يقوم بتلك الخدعة الفاسدة على تلك العجوز المسكينة؟ فهي امرأةٌ موقّرة على الرّغم من أنّها غريبة الأطوار."

تبادلت فيث وأونا النّظرات مجدّدًا، كانت تلك مسألةٌ تعني نادي السّلوك الحسن وما كانوا ليتحدّثوا في الأمر مع ماري.

قالت ماري بينما مرّ السيّد ميريديث من جانبهم: "ها هو والدكم ولم يرنا كعادته وكأنّنا غير مرئيّين، حسنًا أنا لا أمانع ذلك ولكنّ هناك أناسٌ يمانعون."

لم يكن السيّد ميريديث قد رآهم ولكنّه لم يكن يسير بطريقته الحالمة والشّاردة كعادته بل كان يسير إلى أعلى التلّة باهتياجٍ وانزعاج، كانت السيّدة "آلك دايفس" قد أخبرته للتوّ بحادثة كارل والأنقليس وكانت مغتاظةً جدًّا من الأمر، إذ كانت السيّدة "كار" قريبتها الثّالثة. كان السيّد ميريديث أكثر من مغتاظ بل كان متألّمًا ومصعوقًا فهو لم يظنّ من قبل أنّ كارل قد يقدم على هكذا فعل فهو لم يكن ميّالًا للألاعيب والرّعونة والتّغافل ولكن كان هذا مختلفًا، كان فيه نكهة لاذعة. حين وصل إلى المنزل، وجد كارل على العشب يراقب عادات وتقاليد مستعمرة من الدّبابير، استدعاه السيّد ميريديث إلى المكتب وواجهه بوجهٍ أكثر

صرامةٍ لم يسبق أن رآه أيٌّ من أطفاله وسأله إن كانت القصّة صحيحة.

قال كارل بوجهٍ محمرّ ولكنّه كان ينظر في عينيّ والده بشجاعة: "أجل."

تأوّه السيّد ميريديث إذ كان يأمل أن يكون في القصّة بعض المبالغة على الأقلّ.

وقال: "أخبرني بالقصّة كاملة."

قال كارل: "كان الصّبية يصطادون الأنقليس فوق الجسر وكان "لينك درو" قد اصطاد سمكةً هائلة... أعني سمكةً ضخمة... أكبر سمكةٍ رأيتها في حياتي. كانت أوّل سمكةٍ رأيت أنّه التقطها وكانت قد بقيت في سلّته لوقتٍ طويل وكانت ساكنة، كنت أحسبها ميتة، صدقًا حسبتها ميتة. وبعدها مرّت السيّدة "كارّ" العجوز من فوق الجسر ودعتنا بالأوغاد وأخبرتنا أن نعود إلى المنزل، ولم نكن قد قلنا لها أيّ كلمة يا والدي، صدقًا. لذا وحين مرّت في طريق عودتها بعد أن ذهبت إلى المتجر، تحدّاني الصّبية أن أضع الإنقليس الذي اصطاده "لينك" في خلفيّة عربتها. ظننته ميتًا وأنّه لن يتسبّب لها بالأذيّة فألقيته في العربة وبعدها عاد الإنقليس للحياة فسمعناها ورأيناها تصرخ وتقفز من العربة. لقد شعرت بالأسف الشّديد وهذا كلّ ما في الأمر يا والدي."

لم يكن الأمر بالسّوء الذي كان يخشاه السيّد ميريديث ولكنّه كان سيّئًا بما يكفي. فقال بأسى: "لا بدّ لي من معاقبتك يا كارل."

"نعم، أعلم ذلك يا والدي."

"عليّ... عليّ أن أضربك."

نكص كارل فزعًا، لم يسبق له أن تلقّى الضّرب في حياته ولكنّه بعد أن رأى كم كان والده يشعر بالذّنب قال بابتهاج: "حسنًا يا والدي."

أساء السيّد ميريديث فهم بشاشته وحسبه عديم الإحساس وأخبر كارل أن يحضر إلى مكتبه بعد العشاء وحين غادر الفتى، ارتمى على

كرسيّه وتأوّه مجدّدًا، كان مذعورًا ممّا سيحدث اللّيلة أكثر سبعة أضعافٍ ممّا كان كارل مذعورًا. لم يكن الكاهن المسكين يعلم حتّى بما عليه أن يضرب الفتى. ما الذي يُستعمل لضرب الفتية؟ القضبان؟ الخيزران؟ لا، سيكون ذلك عنيفًا أكثر ممّا ينبغي. سوطًا خشبيًّا إذًا؟ سوف يكون عليه هو، "جون ميريديث"، أن يذهب إلى الغابة ويأتي بسوطٍ خشبيّ وكانت تلك فكرةً مروّعة. وبعدها، ارتأت لذهنه، وبدون دعوة، صورة وجه السيّدة "كار" المذعور لرؤية ذلك الإنقليس يعود للحياة، ورآها تبحر كالسّاحرة فوق عجلات العربة، فضحك قبل أن يتسنّى له أن يمتنع عن ذلك، وبعدها كان غاضبًا من نفسه وأكثر غضبًا من كارل.

في المقبرة، كان كارل يتحدّث في الأمر مع فيث وأونا اللّتين كانتا قد عادتا إلى المنزل لتوّهما وهلعتا لفكرة أنّ كارل سيُضرب، سيضربه والده الذي لم يسبق له أن فعل! ولكنّهما اتّفقتا على أنّ ذلك كان منصفًا.

تنهّدت فيث وقالت: "أنت تعلم أنّ ما فعلته لا يُغتفر كما أنّك لم تعترف بفعلتك في النّادي."

قال كارل: "لقد نسيت. ثمّ إنّني لم أظنّ أنّ الأمر تسبّب بأذيّة أحدهم، لم أكن أعلم أنّها أصابت قدميها ولكنّني سأُضرب وسيكون ذلك عادلًا."

قالت أونا ممسكةً بيد كارل: "هل سيكون ذلك... مؤلمًا جدًّا؟"

قال كارل بعبث: "آه لا أظنّ أنّ ذلك سيكون مؤلمًا جدًّا. على أيّة حال، أنا لن أبكي مهما كان ذلك موجعًا لأنّ ذلك قد يشعر والدي بالذّنب. أتمنّى لو أستطيع ضرب نفسي كما ينبغي فأعفيه من فعل ذلك."

بعد العشاء، حيث لم يأكل كارل سوى القليل ولم يتناول السيّد

ميريديث أيّ شيء، توجّه الاثنان إلى المكتب بصمت. كان السّوط على الطّاولة وكان السيّد ميريديث قد واجه وقتًا عصيبًا في إيجاد سوطٍ يناسبه. كان قد قطع واحدًا فوجده نحيفًا جدًّا ولكنّ كارل كان قد اقترف ذنبًا لا مبرّر له، ثمّ قطع واحدًا آخر وكان ثخينًا جدًّا، ففي آخر المطاف، كان كارل يحسب الإنقليس ميتًا. كان الثّالث مناسبًا له ولكنّه حين التقفه من على الطّاولة، بدا ثخينًا وثقيلًا جدًّا... وكان أشبه بالقضيب من السّوط.

قال لـكارل: "مدّ يدك."

أرجع كارل رأسه للوراء ومدّ يده من دون تردّد ولكنّه كان ما يزال صغيرًا، ولم يكن في وسعه أن يخفي القليل من الذّعر في عينيه. نظر السيّد ميريديث في تلك العينين، كانتا عينيّ "سيسيليا"، العينين نفسهما وفيهما كان التّعبير ذاته الذي كان قد رآه ذات مرّة في عينيّ "سيسيليا" حين أتت لتخبره بأمرٍ كانت تخشى إخباره به.

هنا كانت عينا "سيسيليا" في محيا صغيره كارل الذي كان يحسبه على مشارف الموت ذات ليلةٍ فظيعةٍ لا نهائيّة منذ ستّة أسابيع.

رمى "جون ميريديث" السّوط.

وقال: "اذهب. لا يمكنني أن أضربك."

هرع كارل إلى المقبرة وقد شعر أنّ النّظرة التي اعتلت وجه والده كانت أسوأ من أيّ ضربٍ قد يتلّقاه.

سألت فيث: "هل انتهى الأمر بهذه السّرعة؟". كانت هي وأونا جالستين على شاهد قبر "بولوك" ممسكتين بأيدي إحداهما الأخرى.

قال كارل منتحبًا: "هو... لم يقم بضربي مطلقًا و... أتمنّى لو أنّه فعل وها هو في الدّاخل يصارع أحزانه."

تسلّلت أونا بعيدًا عنهما، كان قلبها توّاقًا لمواساة والدها. فتحت باب المكتب من دون إصدار أيّ صوت وتسلّلت إلى الدّاخل كالفئران.

كانت الغرفة مظلمة وكان والدها جالسًا إلى مكتبه مديرًا ظهره لها وغارسًا رأسه بين يديه. كان يحدّث نفسه بقلبٍ منفطر، كلماتٍ مأساويّة ولكنّ أونا سمعت... سمعت وفهمت بالاستنارة المفاجئة التي تأتي إلى الأطفال اليتامى. ثمّ تسلّلت خارجًا وأغلقت الباب بالهدوء نفسه الذي دخلت فيه. استرسل "جون ميريديث" في إفصاحه عن ألمه في عزلته الرّائقة.

***

34
أونا تزور التلّة

صعدت أونا السّلالم. كان كلٌّ من كارل وفيث في طريقهما إلى وادي قوس المطر مع بزوغ القمر إذ كانا قد سمعا هزج قيثارة جيري وأدركا أنّ أطفال بلايث كانوا هناك وأنّ المرح في انتظارهما. لم ترغب أونا في الانضمام إليهما بل انصرفت إلى غرفتها أوّلًا حيث جلست على سريرها وبكت لبعض الوقت. لم تكن تريد أن تحلّ أيّ امرأةٍ مكان أمّها الحبيبة، لم تكن تريد زوجة أبٍ تكرهها وتحرّض والدها على كرهها. ولكنّ والدها كان تعيسًا ويائسًا وإن كان في وسعها أن تعيد السّرور إلى قلبه بأيّ طريقة فلا بدّ من أن تفعل. هناك أمرٌ واحدٌ يمكنها القيام به... وقد علمت منذ اللّحظة التي غادرت فيها المكتب أنّ عليها أن تفعل ذلك ولكنّه كان أمرًا عسيرًا.

بعد أن ذرفت أونا الدّمع الغزير، مسحت دموعها ثمّ اتّجهت إلى الغرفة الإضافيّة. كانت مظلمةً ومعفّرة ذلك أنّ السّتائر والنوافذ لم تُفتح منذ وقتٍ طويل. لم تكن الخالة مارثا من محبّي الهواء الطّلق ولكنّ ذلك لم يكن مهمًّا لأنّ لا أحد في الدّير يفكّر في إغلاق الأبواب، ناهيك عن حضور كاهنٍ غير محظوظٍ إلى الدّير ويُرغم على تنفّس

هواء الغرفة الإضافيّة.

كان هناك خزانةٌ في الغرفة الإضافيّة وفي داخلها فستانٌ حريريٌّ رماديّ. دخلت أونا إلى الخزانة وأغلقت الباب ثمّ جثت على ركبتيها وضمّت الطّيّات الحريريّة النّاعمة إلى وجهها. كان ذلك فستان زفاف والدتها وكان ما يزال يعبق بعطرٍ حلوٍ غامض، كأنّه حبٌّ لا ينضب. كانت أونا تشعر دائمًا بأنّها قريبةٌ جدًّا من والدتها في ذلك المكان... وكأنّها جاثيةٌ أمام قدميها واضعةً رأسها في أحضانها، وكانت تذهب إلى هناك حين تعييها مصاعب الحياة.

همست للثّوب الحريريّ قائلة: "أمّاه، أنا لن أنساك أبدًا يا أمّاه وسوف تبقين الحبّ الأوّل في قلبي ولكن عليّ أن أفعلها يا أمّي لأنّ والدي تعيسٌ جدًّا وأنا أعلم أنّك ما كنت لترغبي برؤيته شقيًّا هكذا. وسوف أحسن إليها يا أمّي وسأحاول أن أحبّها حتّى وإن كانت من أمثال زوجات الأب اللّواتي تحدّثت عنهنّ ماري فانس."

استجمعت أونا بعض القوى الرّوحيّة من مقامها السريّ. وغفت تلك اللّيلة وآثار الدّموع ما زالت تلمع على وجهها اللّطيف الجادّ.

بعد ظهيرة اليوم التّالي، ارتدت أونا أفضل قبّعةٍ وفستانٍ لديها وكانا رثّين بما يكفي. كانت كلّ الفتيات الصّغيرات في جلين يملكن ملابس جديدةً لهذا الصّيف باستثناء فيث وأونا. كانت ماري فانس تملك فستانًا جميلًا من النّسيج المطرّز ذو حزامٍ قرمزيٍّ حريريّ ولكنّ أونا لم تكن تهتمّ لرثاثتها بل كانت تريد أن تبدو مرتّبة وحسب. قامت بغسل وجهها بعناية وسرّحت شعرها الأسود إلى أن أصبح ناعمًا كالحرير وربطت رباط حذائها بحذر بعد أن رتقت زوج الجوارب الجيّد الوحيد الذي كان لديها، كان ترغب في سخام حذائها ولكنّها لم تجد أيّ طلاءٍ أسود. وأخيرًا تسلّلت من الدّير وعبرت وادي قوس المطر، والغابات الهامسة إلى أن وصلت إلى الطّريق المودية إلى المنزل فوق التّلّة

وكانت متعبةً ودافئة حين وصلت إلى هناك.

رأت "روزماري ويست" جالسةً تحت شجرةٍ في الحديقة وعبرت فراش أزهار الدّاهلية لتصل إليها. كانت تضع كتابًا في حضنها ولكنّها كانت تحدّق بعيدًا في الميناء، وكانت أفكارها مأسوفًا عليها بما يكفي. لم تكن الحياة رغدةً في منزل التلّة مؤخّرًا. لم تحرد إيلين... بل كانت مساندة ولكنّ المرء يستشعر أمورًا وهو في غنى عن الكلمات نهائيًّا، وفي بعض الأحيان يكون الصّمت بين امرأتين بليغًا بشكلٍ لا يُطاق. باتت جميع الأشياء المألوفة التي كانت تحمل طعم الحلاوة تحمل طعمًا مريرًا الآن. كما أنّ "نورمان دوجلاس" قد فار فائره من وقتٍ لآخر وراح يرهب إيلين ويتزلّف إليها. كانت روزماري واثقةً من أنّ هذه المحنة ستنتهي باصطحابه لإيلين معه ذات يوم وانتابها شعورٌ أنّها ستُسرّ لحدوث ذلك. ستكون الحياة موحشةً جدًّا حينها ولكنّها لن تكون مشحونةً بالمتفجّرات.

أيقظتها لمسةٌ خجولةٌ على كتفها من أحلامها المكدرة. فاستدارت ورأت "أونا ميريديث".

"حبيبتي أونا، هل صعدت إلى هنا في هذا الجوّ الحارّ؟"

قالت أونا: "أجل، لقد أتيت كي... أتيت كي..."

ولكنّها استصعبت قول غايتها من مجيئها فخانتها عباراتها واغرورقت عيناها بالدّموع.

"ما المشكلة يا صغيرتي الحلوة أونا؟ لا تخشي من إخباري."

وضعت روزماري ذراعها حول الفتاة الصّغيرة وضمّتها إليها. كانت عيناها جميلتين للغاية... ولمستها عطوفة فاستعادت أونا شجاعتها.

قالت أونا وهي تلهث: "أتيت... لأطلب منك... أن تتزوّجي والدي."

عُقد لسان روزماري لبرهةٍ وحدّقت بـأونا باندهال.

قالت أونا متوسّلة: "آه رجاءً لا تغضبي يا عزيزتي الآنسة "ويست". كما ترين، يقول الجميع أنّك ترفضين الزّواج من والدنا لأنّنا أطفالٌ أشقياء، وهذا الأمر يحزنه حقًّا لذا فكّرت في أن آتي وأخبرك أنّنا لا نسيء التّصرّف عمدًا أبدًا، وإن وافقت فقط على الزّواج من والدنا فسنحاول أن نكون مؤدّبين ونحسن التّصرّف وننصاع لأوامرك. أنا واثقةٌ من أنّك لن تواجهي المتاعب بسببنا. أرجوك يا آنسة ويست."

كانت روزماري تفكّر بسرعة ورأت أنّ تخمين الثّرثارين قد زرع هذه الفكرة الخاطئة في ذهن أونا. كان عليها أن تكون صريحةً وصادقةً بشفافية مع الطّفلة.

فقالت بلطف: "حبيبتي أونا، لا ذنب لكم أيّها الصّغار المساكين في عدم زواجي من والدكم. أنا لم أفكّر في هذا الأمر مطلقًا. أنتم لستم أطفالًا سيّئين... لم أحسبكم كذلك قط. السّبب... السّبب مختلفٌ تمامًا يا أونا."

سألت أونا وهي ترمقها بنظراتٍ مؤنّبة: "ألا تحبّين والدي؟ آه يا آنسة ويست أنت لا تعلمين كم هو ودود أنا واثقةٌ من أنّه سيكون زوجًا لائقًا بك."

حتّى في وسط أشجانها وانحراجها، لم تتمكّن روزماري من منع الابتسامة التي ارتسمت فوق ثغرها.

صاحت أونا بانفعال: "آه لا تضحكي يا آنسة ويست فوالدنا يشعر ببالغٍ من الاستياء إزاء هذا الأمر.

قالت روزماري: "أظنّ أنّك مخطئةٌ يا صغيرتي."

"كلّا أنا واثقةٌ من أنّني لست مخطئة. آه يا آنسة ويست كان والدنا على وشك ضرب كارل أمس... فقد تصرّف كارل برعونة... ولم يتمكّن والدنا من حمل نفسه على القيام بذلك لأنّه لا يملك الخبرة في الضّرب. لذا حين عاد كارل وأخبرنا كم كان والدنا مستاءً، تسلّلت إلى

مكتبه لأرى إن كان في وسعي مساعدته... فهو يحبّ أن أواسيه يا آنسة ويست... ولم يلحظ أنّني دخلت ولكنّني سمعت ما كان يقوله. سأخبرك بما سمعت يا آنسة ويست إن سمحت لي بالهمس في أذنك."

همست أونا بصدق واحمرّ وجه روزماري. إذن فجون ميريديث ما زال مهتمًّا بأمرها وهو لم يغيّر رأيه، ولا بدّ من أنّه مهتمٌّ بشكلٍ رهيب إن كان قد قال هذا الكلام... لا بدّ من أنّه مهتمٌّ أكثر ممّا كانت تتوقّع. جلست ساكنةً للحظات تداعب شعر أونا ثمّ قالت:

"هلّا أخذت رسالةً منّي إلى والدك يا أونا؟"

سألت أونا بتلهّف: "آه أستتزوّجينه يا آنسة ويست؟"

قالت روزماري وقد احمرّ وجهها مجدّدًا: "ربّما... إن كان حقًّا يرغب في ذلك."

قالت أونا بشجاعة: "يسرّني ذلك... يسرني ذلك." ثمّ رنت إليها وقد ارتعشت شفتاها وقالت باستجداء: "آه يا آنسة ويست أنت لن تقومي بتحريض والدنا ضدّنا... أنت لن تجعليه يكرهنا، صحيح؟"

حدّقت فيها روزماري ثانيةً.

"أتظنّين أنّني قد آتي على فعلٍ كهذا يا أونا ميريديث؟ من الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟"

"قالت ماري فانس أنّ جميع زوجات الأب هكذا... وأنّ جميعهنّ يبغضن أبناء أزواجهنّ ويزرعن الكراهيّة في قلب الوالد تجاههم... وقالت أنّهنّ عاجزاتٌ عن التّحكّم في هذا... وأنّ كونهنّ زوجات أبٍ يجعلهنّ هكذا."

"أيتّها الطّفلة المسكينة! وعلى الرّغم من ذلك فقد أتيت إلى هنا وطلبت منّي أن أتزوّج من والدك، لأنّك أردت إدخال السّرور إلى قلبه؟ أنت قرّة عين، أنت بطلة على قولة إيلين، أنت عون الحبيب. والآن أنصتي لما سأقوله يا حبّة قلبي. إنّ ماري فانس فتاةٌ ساذجة لا تعرف

الكثير عن الحياة وهي مخطئةٌ في بعض الأمور. لن أفكّر مطلقًا في تحريض والدكم ضدّكم، بل سأحبّكم جميعًا من أعماق قلبي. أنا لا أريد أن أحلّ مكان والدتكم... إذ لا بدّ من أن يكون لها مكانةٌ خاصّةٌ في أفئدتكم، ولكنّني لا أملك أدنى نيّةٍ في أن أكون زوجة أبيكم، بل أرغب في ان أكون صديقتكم ومساعدتكم وإحدى أترابكم. ألا تظنّين أنّ ذلك سيكون ظريفًا يا أونا؟ إن حسبتني أنت وفيث وكارل وجيري رفيقةً مرحةً وطيّبة... أو أختًا كبرى؟"

صاحت أونا وقد تغيّرت ملامحها: "آه سيكون ذلك رائعًا!" ثمّ لفّت ذراعيها باندفاعٍ حول عنق روزماري وكانت تشعر بسعادةٍ غامرةٍ وكأنّ في وسعها أن تطير من دون أجنحة.

"هل يملك الآخرون... هل تملك فيث والفتيان نفس الفكرة عن زوجات الأب؟"

"لا، لم تصدّق فيث ماري فانس قط، وكان من السّخف أن أصدّقها أيضًا. إنّ فيث تحبّك بالفعل... لطالما أحبّتك منذ أن أُكل المسكين آدم وسوف يُسرّ جيري وكارل. آه يا آنسة ويست هلّا... أيمكنك أن تعلّميني الطّبخ... قليلًا... والخياطة و... وبعض الأمور الأخرى حين تأتين للعيش معنا؟ أنا أجهل القيام بأيّ شيء، لن أتعبكِ... سأحاول أن أتعلّم بسرعة."

"سأبذل قصارى جهدي في تعليمك ومساعدتك يا حبّة قلبي. ولكن اسمعي، لا تخبري أحدًا بأيّ شيءٍ بخصوص هذا الموضوع، ولا حتّى فيث إلى أن يخبركم والدكم بنفسه، إتّفقنا؟ وهل ستبقين لاحتساء الشّاي معي؟"

قالت أونا متعثّرة: "آه شكرًا لك ولكن... ولكن... أظنّ أنّه من الأفضل أن أعود أدراجي وأوصل الرّسالة إلى والدي، وهكذا سيسرّ في أقرب وقتٍ ممكن يا آنسة ويست."

قالت روزماري: "حسنًا."

ثمّ دخلت إلى المنزل وخطّت الرّسالة وأعطتها لأونا. وحين غادرت تلك الآنسة الصّغيرة كباقةٍ من السّعادة الخافقة، ذهبت روزماري إلى إيلين التي كانت تقشّر البازلاء على الشّرفة الخلفيّة.

وقالت: "إيلين، لقد جاءت أونا ميريديث إلى هنا لتطلب منّي الزّواج من والدها."

نظرت إيلين إلى أختها وقرأت ملامح وجهها.

وقالت: "وهل ستفعلين؟"

"على الأرجح."

راحت إيلين تقشّر البازلاء لبضعة دقائق أخرى، ثمّ رفعت يديها إلى وجهها فجأةً وكان هناك دموعٌ في عينيها الكبيرين ذاتيّ الحاجبين السّوداوين.

وقالت بين الضّحك والنّشيج: "آمل... آمل أن نعيش حياةً هنيئة."

في الدّير، سارت أونا ميريديث، وهي المنتصرة والجذلة، بفخرٍ إلى مكتب والدها ووضعت الرّسالة على الطّاولة أمامه. تورّد وجهه الشّاحب عند رؤيته لخطّ اليد الواضح والدّقيق الذي كان يعرفه جيّدًا. فتح الرّسالة. كانت قصيرةً جدًّا ولكنّ دموعه انهمرت كالسّيل بينما كان يقرأها، كانت روزماري قد سألته إن كان يستطيع مقابلتها عند المغيب قرب الينبوع في وادي قوس المطر.

***

35
"دعوا المزماريّ يحضر"

قالت الآنسة "كورنيليا: "وهكذا سيُقام حفل الزّفاف المزدوج في إحدى الأيّام قرابة منتصف هذا الشّهر."

كان الجوّ باردًا بعض الشّيء في أمسية أوائل شهر أيلول، لذا أضرمت آن نار موقدها الحطبيّ الجاهز في غرفة المعيشة الواسعة، وتغنّت هي والآنسة كورنيليا بوميضها الخياليّ.

قالت آن: "أنا مبتهجةٌ للغاية، لا سيّما من أجل السيّد ميريديث وروزماري. أشعر بالسّعادة نفسها التي غمرتني حين كنت مقبلةً على الزّواج. لقد شعرت أنّني عروسٌ مجدّدًا حين صعدت إلى التلّة لأرى تحضيرات زفاف روزماري."

قالت سوزان من الزّاوية حيث كانت تحتضن طفلها الأسمر: "سمعت أنّ ما جهّزته يليق بالأميرات. لقد دُعيت لأراه أيضًا وأنا أنوي أن ألبّي الدّعوةٍ ذات مساء. فهمت أنّ روزماري سوف تلبس الحرير الأبيض مع طرحة ولكنّ إيلين ستتزوّج بفستانٍ كحليّ. وأنا لا أشكّ يا عزيزتي زوجة الطّبيب أنّ ذلك تصرّفٌ صائبٌ منها ولكنّني، عن نفسي، أفضّل الفستان الأبيض والطّرحة فذلك يليق بالعروس أكثر."

إرتأت لآن صورة سوزان بفستانٍ أبيض وطرحة وبالكاد استطاعت تمالك نفسها.

قالت الآنسة كورنيليا: "أمّا بالنّسبة للسيّد ميريديث فقد جعلته خطبته رجلًا مختلفًا فهو لم يعد غافلًا وشارد الذّهن كما كان من قبل صدّقيني. لقد ارتحت لسماعي أنّه قرّر إغلاق الدّير والسّماح لأطفاله بزيارة أصدقائهم ريثما يقضي شهر العسل مع روزماري. كنت سأتوقّع أن أفيق كلّ صباحٍ وأجد المنزل محترقًا لو أنّه تركهم بمفردهم مع الخالة مارثا هناك."

قالت آن: "سوف تأتي الخالة مارثا مع جيري إلى هنا أمّا كارل فسيزور الشّيخ "كلو" ولكنّني لا أدري أين ستبقى الفتاتان."

قالت الآنسة كورنيليا: "آه سوف تأتيان إلى منزلي. وبالطّبع يسرّني ذلك ولكنّ ماري ما كانت لتريحني لو أنّني لم أطلب منهما القدوم في جميع الأحوال. سوف تقوم جمعيّة "مساعدة السيّدات" بتنظيف الدّير قبل عودة العروسين واهتمّ "نورمان دوجلاس" بملء القبو بالخضروات."

لم يسبق لأيّ أحدٍ في هذه الأيّام أن رأى مثيلًا لنورمان أو سمع به، صدّقيني. إنّه فرحٌ للغاية لأنّه سيتزوّج من إيلين بعد أن كان يمنّي النّفس بها لسنوات. لو كنت إيلين... ولكنّني لست إيلين ولكن إن كانت راضية فيمكنني أن أكون راضيةً كذلك. لقد سمعتها تقول قبل سنواتٍ أنّها لا تريد أن تتزوّج جروًا مروّضًا، ولا شيء في نورمان يوحي بالوداعة، صدّقيني."

كانت الشّمس تغيب في وادي قوس المطر. والبركة تتزيّن برداءٍ بنفسجيٍّ وذهبيٍّ وأخضر وقرمزيٍّ مذهل وتلوّنت التّلّة الشّرقيّة بلونٍ أزرق هافت وكان القمر البدر المتوهّج يطفو في السّماء فوقها كأنّه فقّاعةٌ فضيّة.

كانوا جميعًا مجتمعين هناك في الفسحة المفتوحة الصّغيرة، فيث وأونا وجيري وكارل وجيم ووالتر ونان ودي وماري فانس، كانوا يقيمون احتفالًا مميّزًا على شرف جيم لأنّ تلك ستكون أمسيته الأخيرة في وادي قوس المطر وسيتعيّن عليه أن يرتحل غدًا إلى شارلوت تاون للحضور في أكاديميّة "كوين". سوف تُفسخ دائرتهم السّحريّة وعلى الرّغم من مرحهم في مهرجانهم ذاك غير أنّه كان هناك شيءٌ من الأسوان في قلوبهم الفتيّة.

أشار والتر قائلًا: "أترون، هناك قصرٌ ذهبيٌّ ضخمٌ عند المغيب، انظروا إلى البرج المتوهّج... وإلى البيارق القرمزيّة المنبعثة منهما. لربّما هناك ظافرٌ في إحدى المعارك في طريقه للعودة إلى دياره... وتلك البيارق معلّقة تكريمًا له."

هتف جيم: "آه أتمنّى لو تعود الأيّام الخوالي. أحبّ أن أكون جنديًّا، جنرالًا منتصرًا عظيمًا. سأقدّم كلّ ما لديّ لأشهد معركةً عظيمة."

حسنًا، كان جيم سيصبح جنديًّا ويشهد أعظم معركةٍ اندلعت على وجه الأرض ولكنّ ذلك ما زال ينتمي إلى المستقبل البعيد وكانت والدته، والتي كان جيم ابنها البكر، معتادةً على النّظر إلى أولادها وحمد اللّه أنّ أيّام الشّجاعة الماضية التي كان جيم يتوق إليها قد ولّت للأبد، وأنّه لن يضطرّ أبناء كندا لقيادة معركةٍ لأجل رماد آبائهم ومعابد آلهتهم.

لم يكن ظِلُّ الصّراع العظيم قد أنذر ببرودته بعد. كان الفتيان الذين سيقاتلون، وربما يسقطون، في ميادين فرنسا وفلاندرز وجليبولي وفلسطين ما يزالون تلاميذ مدارس طائشين، وكانت الحياة العادلة ما تزال تلوح أمامهم عند الأفق. وكانت الفتيات اللواتي كانت ستنفطر قلوبهنّ ما يزلن صغيراتٍ عذارى يحملن الآمال والأحلام.

تخلّت بيارق مدينة الغروب عن الألوان القرمزيّة والذهبيّة شيئًا

فشيئًا وتلاشى حفل تكريم المنتصر ببطء. تسلّل الشّفق إلى الوادي وخيّم الصّمت فوق المجموعة الصّغيرة. كان والتر يقرأ في كتاب أساطيره المحبّب ذلك اليوم أيضًا فتذكّر كيف تخيّل مجيء المزماريّ الأبلق إلى الوادي في مساءٍ مماثلٍ لهذا المساء تمامًا.

راح يتحدّث حالمًا، أراد جزءٌ منه أن يثير رفاقه وشعر الجزء الآخر أنّ شيئًا منفصلًا عنه تكلّم بواسطة شفتيه.

فقال: "إنّ المزماريّ يقترب وهو أقرب ممّا كان عليه في تلك اللّيلة التي رأيته فيها للمرّة الأولى. إنّ عباءته الطّويلة الغامضة تلوح من حوله. إنّه يعزف ويعزف ويعزف... وعلينا أن نتبعه... أنا وجيم وكارل وجيري... حول العالم. أنصتوا، أنصتوا، أليس في وسعكم سماع موسيقاه الجيّاشة؟"

ارتعشت الفتيات.

احتجّت ماري قائلة: "أنت تعلم أنّك تتظاهر ليس إلّا وأتمنّى أن تقلع عن ذلك فأنت تجعل الأمر يبدو واقعيًا جدًّا. أنا أكره المزماريّ خاصّتك ذاك."

ولكنّ جيم راح يضحك ضحكة مرحة ووقف على أكمةٍ صغيرةٍ مستقيمًا ومهيبًا، بجبينه الوضّاح وعينيه اللّتين لا تخشيا شيئًا. كان هناك العديد من أمثاله في أرجاء أرض القيقب.

صاح ملوّحًا بيده: "دعوا المزماريّ يحضر ورحّبوا به، سوف أتبعه حول العالم."

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

ستة أبطال

صغار، يستلمون دفّة القيادة في هذه الرحلة المميزة من سلسلة آن، اكتشف هؤلاء الأشقياء "وادي قوس المطر" في الجزء السابق، ذلك المكان الحالم في إنجلسايد الذي خَدَم خيالاتهم الفتية ومغامراتهم الشيّقة ومعاركهم المبتكرة.

كبر الأطفال، وبدأت أحلامهم تكبر معهم، ولكن يشاء القدر أن تنضم إليهم مجموعةٌ أخرى في وادي قوس المطر، أطفال لم يرَ لهم أحد مثيل من قبل، عائلة "ميريديث" وبعد أن يدخلون حياة أبناء آن، تدخل حياتهم جميعًا "ماري فانس" اليتيمة الغريبة، التي تقلب الأمور في المنطقة.

تتوالى الأيام وتتوالى معها الأحداث والمصائب والمغامرات وثرثرة نساء القرية، كل يوم جديد يحمل معه حكاية جديدة، أما في وادي قوس المطر فهناك دائمًا مغامرةٌ تختمر تحت سمائه المشمسة.

telegram @soramnqraa

flamingopubl & Little Puffin
ISBN 978-9922-9289-8-2
9 789922 928982
Designed by: MAHER ADNAN